رواية

" عودة التوليب "

الكاتبة

عزة خطاب

رواية " عودة التوليب "
للكاتبة/ عزة خطاب
الطبعة الأولى ٢٠١٨
جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الكاتب : عزة خطاب
رقم الإيداع: ١٧٥٤٥
ISBN : 978-977-835-053-2
مراجعة وتنسيق داخلي : مها المقداد

الناشر
دار زحمة كُتاب
15ش السباق- مول المريلاند- مصر الجديدة
تليفون: 01205100596
Email: za7ma- kotab@hotmail.com
جميع الحقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة زحمة كُتاب للثقافة والنشر
المشهرة قانوناً بسجل تجاري رقم/84486

إهداء..

إلى كل مَن دعمني بشدة (زوجي الحبيب)؛ ومن ثَمَّ أسرتي الغالية: ابنتي نهاد، وابنتي نوران..

أهدي هذا العمل أيضًا إلى كل مَن تعلمت منهم.. إلى الأقلام الراقية بكل مكان في العالم...

عزة خطاب

الفصل الأول

لحظات عصيبة؛ تلك التي يمر بها " رحيم "؛ وهو قابع فى غرفة صغيرة بإحدى المستشفيات، في انتظار خروج زوجته من غرفة العمليات، بعدما علم من إحدى الممرضات أن زوجته قد وضعت مولودة أنثى، جميلة تشبه والدتها للغاية؛ لكنه أبى رؤيتها قبل والدتها، يريد فقط اطمئنان قلبه على حبيبة عمره.

كانت أشد اللحظات وطأة على نفسه، شعوره أن هناك خطبًا ما؛ فحالة زوجته تدعو للقلق بسبب أنها تُعاني من ضعف في عضلة قلبها، وسوء حالتها مع مراحل الحمل، يتمنى لو عاد به الزمن إلى الوراء؛ ليمنع ذلك الحمل الذي يهدد حياة زوجته!

الوقت!... يتمنى قتل هذا الوقت الذي حال بينه وبينها حتى الآن، وجعل قلبه يكاد يتوقف خوفًا وقلقًا..... فقد أصبح لا يريد من الحياة سوى غيرها!

أخرجه من صراعه النفسي القاتل صوت الممرضة، تخبره أن زوجته قد غادرت غرفة الولادة؛ ومن ثمَّ تمَّ إدخالها العناية المركزة؛ لمتابعة حالة قلبها، وقد سمح الطبيب له برؤيتها لعدة دقائق!

أسرع إليها؛ وقد تسارعت نبضات قلبه كثيرًا، وكادت أن تخرج وتنشق عن صدره... دلِّف إلى الغرفة؛ ليجدها ممددة على الفراش، وقد أغمضت عينيها بوجه شاحب خالي من الحياة، والمحلول معلق بيدها اليُمنى، وأحد أصابع يدها اليُسرى معلق بجهاز لقياس النبض والضغط؛ كي يتمكنوا من متابعة حالة القلب!

لم يكترث لصوت الممرضة، لم يعبأ على الإطلاق؛ وهى تخبره بصوت خافت؛ أنه قد تمَّ وضع طفلته بداخل إحدى الحضانات؛ نظرًا لأن حالة الأم لا تسمح بوجودها معها ورعايتها، وأن الطبيب سيحضر خلال لحظات لرؤية الأم!

كان في عالم آخر؛ هو وحبيبته فحسب، يُداعب خصلات شعرها بحنو، ينتظر أن تفتح عينيها؛ لتنير عالمه الذي هالته الظلمة، ينتظر صوتها العذب يناديه... فقط ليخبرها كم أنه يحبها!

لحظات لم يشعر بها قد مرت؛ وإذا بالطبيب قد جاء بالفعل ليتفحص زوجته، فحينما قرأ مؤشرات الأجهزة، ارتسمت على وجهه علامات الحزن وعدم الاطمئنان، والتزم الصمت؛ وكأنه يخشى التحدث لثقل ما يود البوح به.....

نظر الطبيب إلى الممرضة، وأشار لها أن تأخذ الزوج لرؤية طفلته .... ظنًا منه أن رؤيته لها ستخفف عنه حتمًا!.

صاح " رحيم "؛ كأسد يزأر بغضب: لاااااا!!!

لا أريدها!... أنا لا أريد تلك الطفلة! .....أريد زوجتي!.... ولن أغادر على الإطلاق!

لم تكن هناك حيلة بيد الطبيب؛ ومن ثمَّ طلب من الممرضة الانصراف؛ فقد كان متفهمًا ومدركًا لصعوبة الموقف الذي بصدده الآن!

كان يعي أن طلبه الانصراف من الزوج؛ ويكأنه ينتزع منه روحه، ثمَّ يطالبه بأن عليه التزام الهدوء وعدم التذمر؛ إنه الموت البارد.

وبالطبع هو كطبيب يتعرض كثيرًا لمثل هذه المواقف؛ لكن عليه أن يتعامل برحمة مع أصحاب الابتلاءات؛ محاولًا التخفيف من حدة الصدمة بقدر الإمكان، فإذا بهذا الطبيب الإنسان يضع يده على كتف ذلك الزوج المسكين؛ ثمَّ خاطبه بحنو؛ قائلًا:

" أنتَ بالطبع رجل مؤمن، وتعلم أنها أقدار، وعلينا جميعًا أن نرضى بقضاء الله وقدره، فهو الذي يعطي، وهو الذي يأخذ!.. فحالة قلب زوجتك سيئة للغاية، وليس أمامنا إلا الدعاء لها خلال السويعات القليلة القادمة "....

قال الطبيب ما قاله؛ وكأنه ألقى من على عاتقه؛ حملًا ثقيلًا أرهق كاهله؛ ثمَّ فرَّ هاربًا!... فقد غادر الغرفة بعدما أنهى كلامه مباشرةً؛ وترك "رحيم" يواجه مصير زوجته!..

وكأن كلمات الطبيب كانت طلقات مصوبة نحو قلبه؛ فأردته قتيلًا بلا نبض ... مؤكد سيموت بدونها؛ حتى وإن لم تُفارق روحه جسده بموتها!

اقترب منها وظلَّ يتابع أنفاسها آملًا في أن تُحادثه من جديد، تمر لحظات الانتظار دهورًا؛ وإذ بها أخيرًا تفتح عينيها بوهن، وتنظر إليه؛ وكأنها تطبع صورته هذه بذاكرتها إلى الأبد، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، جاهدت في أن تلمس وجهه بيديها لكن محاولتها باءت بالفشل، تحدثت بصوت خافت؛ كأنه صادر من مكان بعيد:

" رحيم!.. ها قد تركت لكَ قطعة مني؛ لتراني بها ولتهون عليكَ الحياة بدوني، وتؤنس وحدتكَ؛ فلا تخذلها ...كن قويا لأجلها، أخبرها أنني أحبها كثيرًا؛ لأنها ثمرة حبنا أنا وأنتَ، .."

قاطعها باكيًا: ستخبريها بذلك أنتِ، وسنراها تكبر أمامنا معًا، لقد قطعتي لي وعدًا؛ أنك شريكتي بالحياة ولن ترحلي، أين قوتك التي عهدتك بها؟.. تفاؤلكِ! هل ستتركينها وحيدة بلا شقيق أو شقيقة؟!

اغمضت عينيها بلا إجابة!

انهمرت دموعه زخات متلاحقة بللت وجهها الملائكي، إنه يجاهد الانهيار بعد إصابته بهذا الشرخ الروحي القاتل!

وضع رأسه على صدرها محتميًا بها؛ وكأنه يتوسل إليها ألا تتركه، ظلَّ هكذا ينتحب ويبكي؛ وإذا بأصوات في الخارج، عجبًا لحال السماء!.. فقد شاركته السماء أحزانه وبكائه.....حيث تعالت أصوات البرق والرعد، وأضحت تضرب بكل قوة؛ فإذا بكرات من الثلج الصغيرة تضرب الزجاج، وكأنها صرخات ألم تدوي في الأرجاء؛ إنها الطبيعة تعزف لحن رثاء .....والأمطار تهطل وتنتحب!

كم هو قاتل ذلك الشعور الذي ينتابنا حينما نفقد أغلى الناس!

أصبح نبضها الخافت؛ هو كل ما يربطه بالحياة؛ والذي أخذ يتباطئ شيئًا فشيئًا؛ ليرفع رأسه عن صدرها ويعود ظهره إلى الخلف في مقعده مُدركًا رحيلها، وقد أغمض عينيه معلنًا استسلامه للقدر في تلك اللحظة؛ وحده بلا حول ولا قوة؛ فإذا بالذاكرة تحلق به نحو الماضي مختطفة إياه إلى حيث كان وكان!

****

في إحدى ضواحي القاهرة في السادس من أبريل لعام ١٩٦٤م؛ حيث كان ذلك التاريخ هو الأكثر أهمية بحياته، والذي تمَّ نقشه بفؤاده، وامتزج بشرايينه؛ إنه تاريخ زواجه من الفتاة التي لطالما أحبها؛ والتي عشقها ومنذ الوهلة الأولى التي وقعت عيناه فيها عليها، تمناها زوجة له، وكانت تلك الوهلة تحديدًا عندما حضرت إلى منزلهم لزيارة شقيقته " فاطمة " عقب خروجها من المشفى بعد إجرائها عملية جراحية لاستئصال الزائدة .

فقد كانت زميلة " فاطمة " بالجامعة، وكانت أخته في السابق تردد اسمها كثيرًا على مسامعه؛ فلطالما تعلقت بها؛ إنها " نعمة " صديقتها المقربة؛ لكن حقيقة الأمر ورغم كثرة حديث أخته عنها، كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها نعمة بالفعل... وقد كان لنعمة مظهر ملائكي؛ فلا يستطيع أحد إبعاد ناظره عنها حين رؤياها.

جمالها آخاذ جذاب وخاطف، وجهها شديد البياض؛ مصحوبًا بحمرة ساحرة عند الخجل، شعرها الذهبي ينسدل فوق كتفيها، بينما تداعب جفنيها بعض الشعيرات التي سقطت فوق عينيها الزرقاويتين، وكلما حاولت إبعادها عادت إليها مداعبة لها عدة مرات متلاحقة، ممشوقة القوام، أنيقة بصورة رائعة وغير سافرة، وقد تمنى رحيم لو أن يتوقف الوقت؛ ليمكث طويلًا معها!

تجاذبا الحديث معًا، وكأنهما انفصلا عن الجميع وفقدا الشعور بمَن حولهما، نظرات تحمل في طياتها الكثير لاحظت أسرته هذا؛ لاسيما "فاطمة" التي بدت على ملامحها علامات السعادة بهذا القرب فيما بينهما!.....

تناولت معهم " نعمة " الغداء في أجواء جميلة أسعدتهم؛ وكأنها فردًا من أفراد العائلة.

وحينما استأذنت نعمة للمغادرة؛ كانت هذه فرصته للخروج معها حتى يوصلها إلى منزلها، ويطمئن عليها، فقد كان بيتها لا يبعد عن منزلهم مسافة كبيرة؛ فقد قطعاها سيرًا على الأقدام؛ ليكملا حديثيهما معًا؛ حتى وصولهما!

وبدأ التعارف؛ فقد كانت مع شقيقته في العام الدراسي الأخير بكلية الآداب قسم لغة إنجليزية؛ بينما تخرج هو من كلية التجارة

منذ عام، ويعمل محاسبًا بإحدى البنوك؛ وهو الشقيق الأكبر لفاطمة ولشقيقتهما الصغرى "أمينة " التلميذة بالصف الثاني الثانوي.

اعتادا أن يتقابلا فيما بعد؛ لا يدريا من أين أتى، وكيف نشب في قلبيهما كل هذا الكم من الارتياح؛ كيف ساقهما القدر لإدمان قربهما من بعضهما البعض؛ فقد تقابلا أكثر من مرة بأماكن عامة، وقد شعرا بتقارب شديد وتناغم بينهما؛ لديهما نقاط مشتركة كثيرة وتفاهم رائع!.....

وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا؛ رغبتهما في الزواج بعد انتهاء دراستها، وحمدًا لله فقد لاقى هذا الأمر رضاءًا واستحسانًا من كلا الأسرتين؛ ليتزوجا في نفس هذا التاريخ الذي التقيا فيه، وهذا اليوم الرائع في أجوائه، يبارك تلك الزيجة، وكأنما كانت تلك الأجواء هدية الربيع لهما، بتفتح الأزهار.....والأشجار قد اكتست باللون الأخضر.. ذلك اللون المفعم بالحياة، ومع سيادة ذلك الطقس الربيعي الرائع والخلاب؛ كانت مراسم الخطبة والعرس بيوم واحد؛ حقًا إنه يوم لا ينسى!

مضى الأسبوع الأول بنكهة الحب سريعًا، دون أن يشعرا، وقد اعتادا فيه على الاستيقاظ مبكرًا، وتناول الإفطار في حديقة

منزليهما، والاستمتاع بإطلالة خيوط الشمس الأولى، ثمَّ الدخول للغرف قبل اشتداد حرارتها.

البيت كان بمثابة جنتهما الخاصة، كان مكون من ثلاث غرف وصالة وحمام ومطبخ ...غرفة النوم وغرفة الأطفال وغرفة بها مكتب خاص به، ومكتبة صغيرة تحوي العديد من الكتب المتنوعة؛ فكلاهما محب للقراءة، يستمتعا كثيرًا ويتشاركا في اختيار الكتب؛ فإذا اختارا كتابًا ما، يقرءاه جيدًا، ثمَّ يتحاورا بشأنه بعد ذلك.

وفي المساء؛ يمضيا بعض الوقت في الصالة، يجلسان على الأريكة أمام التلفاز؛ فهما عاشقين للأفلام العربية؛ خاصة ذات الطابع الرومانسي، بعد انصراف الأهل والأصدقاء الذين حضروا لتهنئتهما بالزواج.

وإن اضطر " رحيم " للذهاب من أجل شراء بعض الأغراض، ولو دقائق قليلة، كانت تتفقده وتتصل به " نعمة "؛ فلطالما كان الهاتف الأرضي ذو القرص الدائري الموضوع على المنضدة؛ شاهد على الاشتياق ورسول الغرام بينهما، وكان يوجد على مقربة منه مذياع صغير تعتز به " نعمة " كثيرًا، وتضفي به نوعا من السكينة في الصباح بسماع صوت القرآن الكريم من

خلاله، وكانت أثناء تنظيف البيت تسمع أنغام الموسيقى الشرقية والطرب الأصيل...

كان البيت يبعث على الراحة والهدوء ....رتبته " نعمة " بذوق أنيق وألوان مبهجة...والزهور بكل مكان، تنثر عبيرها..

اعتاد على مفاجأتها أثناء إعداد الطعام بالمطبخ؛ ليضحك من ردة فعلها بشدة ومن فزعها؛ ثمَّ يضع قبلة على جبينها مداعبًا إياها.

كم كانت سعادتها عندما تفتح عينيها؛ فتجده غارق في النظر إليها، ذائبًا في تفاصيلها؛ وكأنه يرتوي بعد ظمأ شديد قبل أن تصحو، فتكتسي بشرتها بحمرة الخجل؛ ثمَّ تغلق عينيها مرة أخرى على صوته يهمس لها بكلمة الحب؛ لتسكن روحها بعد شعور رائع بالأمان.

أراد أن يُفاجئ زوجته؛ فقد خرج لشراء باقة من الأزهار الجميلة إنها أزهار التوليب، محل الزهور غير بعيد، الشارع نظيف كما يراه دوما، نظر بابتسامة إلى حنطور يسير بالقرب منه، تذكر رغبة زوجته ركوب الحنطور برفقته؛ ما أجمل أحلامها الصغيرة البريئة كأحلام الأطفال!

وبينما هو سائر بطريقه، مرَّ بمقهى كائن على ناصية الشارع المجاور، وقد شدَّ انتباهه التباين الغريب في رواده.... إن عالم المقهى عالم غريب وعجيب حقًا؛ وهو لم يعتد التواجد به.

وكأن المقهى وطن صغير داخل الوطن الأم؛ فهناك مَن يرتدي الطربوش فوق رأسه قابع كجزء هام منه لا ينفصل عنه، ويلعب مع صديقه الطاولة ويتبادلا الصيحات، وتجد كذلك السيد الكبير الذي يرتدي عباءته ممسكًا بكوب الشاي، وقد ذهب إلى عالم آخر بسماع صوت كوكب الشرق " أم كلثوم "، والتي قد تألقت وتجلت في غناء رائعتها (حُب إيه!)؛ ونجد أيضًا هذا الذي يمسك جيدًا بالجريدة ويقلبها؛ وكأنه غواص ماهر، وقد أحضر له صبي المقهى فنجان القهوة، بعد كل تلك التأملات واصل " رحيم " سيره وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة فرح بعد أن عاد لنفسه، وتذكر باقة الأزهار الجميلة التي يود أن يُهادي بها حبيبته " نعمة ".

اقترب من محل الورد؛ حيث توقفت سيارة حمراء لامعة "جوليا سبيدر" بالقرب منه، ثمَّ نزلت عنها امرأة ثلاثينية أنيقة، انتظر قليلًا حتى انتهت من شراء باقة – بوكية - كبيرة من أزهار البنفسج؛ يبدو أنها مغرمة بها، أخذت تقربها من أنفها، وقد تلاشت بداخلها، كان ذلك في مشهد مفعم بالمشاعر والأحاسيس، لحظات قليلة ثمَّ عادت من رحلتها مع أزهار البنفسج، وغادرت بسيارتها؛ وحينما جاء دوره وفرغ صاحب المحل، اختار

هو لزوجته مجموعة جميلة من الأزهار، تمَّ رصهم في تناسق بديع داخل الباقة.

ما أن عاد ودلف إلى داخل المنزل؛ حتى أسرع بالبحث عنها، فوجدها بداخل غرفة النوم تتحدث لصورته بكلمات الشوق، فضحك بشدة وطوقها بذراعيه من خلفها؛ ثمَّ سألها ممازحًا:

- ماذا تقولين لي؟!

فتنهدت بدلال؛ وأجابت بمرح: أخبرك أنني افتقدك، وكدت أفقد عقلي بعيدًا عنكَ، وتمنيت لو أن بإمكان الهواء حمل كلماتي، وإيصالها إليكَ لتعود سريعًا يا حبيبي!..

احتضنها بقوة ثمَّ أفلتها، وتحرك في مواجهتها ثمَّ جثى على ركبتيه مقدمًا لها باقة الأزهار؛ قائلًا:

ما حاجة الوردة إلى مثيلاتها؛ لكن أهدي لكِ هذه الباقة، لعلها تحمل لكِ ما أعجز عن البوح به، وتخبركِ أنني افتقدتكِ أيضًا كافتقادك لي وأكثر!.. فهل تقبلين أميرتي هديتي لكِ؟

يبدو أن فؤادها لم يتحمل كل هذه السعادة، بدأت ابتسامتها تخبو، وكسا الشحوب وجهها وأمسكت رأسها بكلتا يديها؛ لشعورها بدوار شديد، وكادت أن تسقط على الأرض؛ فأسرع " رحيم " إليها ليمسك بها وألقى بباقة الزهور على الأرض، من هول

الموقف ووقعه عليه، ثمَّ حملها بين ذراعيه كالطفلة الصغيرة ووضعها على الفراش، وقد تملكه الخوف والقلق الشديد عليها..

أسرع إلى الهاتف، وطلب من الطبيب أن يحضر سريعًا؛ مضت عشر دقائق وكأنها عشر سنوات، حضر الطبيب وقام بفحصها لتكون المفاجأة؛ إنها حامل!.. فقد مرَّ شهر على زواجيهما، إن الحمل قد حدث مع بداية الزواج..

نصحها بالراحة وكتب لها بعض الأدوية، على أن تتابع معه بصورة شهرية.

يا لها من مشاعر تجتاح قلبيهما وتملؤه بالبهجة والسرور!.. إنها أكبر وأعمق من أن تعبر عنها مجرد كلمات، الدموع لغة الحزن؛ لكن قد تغير مسارها الآن؛ لتصبح من أجمل لغات السعادة التي لا بديل عنها..

لقد بدأت مرحلة جديدة وهامة من حياتهما؛ بانتظار المولود الجديد، وإذا بسجدة شكر من " رحيم " فور سماعه هذا الخبر، وامتزجت كلماته بدموع السعادة؛ بينما تحسست " نعمة " بطنها وهى تبكي غير مصدقة!

توالت الشهور وسط سعادة الأهل والأصدقاء بخبر الحمل، ومتابعة " نعمة " مع طبيبها؛ فضلًا عن رعاية " رحيم " لها وخوفه عليها؛ خاصة بعد تحذيرات الطبيب بضرورة التزامها الراحة التامة.

اقترب اليوم الموعود ...اتفقا على تسمية الطفل، إذ كان مولودة " سجدة "؛ بينما إذا كان مولود " محمد "، وكان " رحيم " يتمنى أن تضع طفلة تشبه والدتها في كل شئ؛ بينما أرادت " نعمة " طفلًا مثل والده، كانا جراء تلك الأمنية يتشاجرا كثيرًا ويضحكا على هذا في الختام..

دخلت "نعمة " المشفى، وقد تمت تهيئتها من أجل الولادة القيصرية؛ بسبب خطورة حالتها وضعف قلبها، وبعد مرور بعض الوقت سمع " رحيم " صراخ الوليد؛ وإذا بالممرضة تخرج إليه تخبره بأنها وضعت مولودة جميلة؛ إنها " سجدة " التي تمناها؛ ولطالما تشاجر من أجلها!...

بينما كان يحملها ويضمها إليه ويقبلها، انهمرت دموعه بحرارة، صار لها الأب والأم معًا؛ فالحياة لا تعطِ كل شئ، فلكي يصير أبًا فقد زوجته، فقد فقدت " سجدة " كذلك والدتها لحظة ميلادها؛ كانت الوليدة تصرخ كثيرًا؛ وكأن صراخها يحمل الكثير والكثير من المعاني... تُرى هل تدرك وتشعر بهذا الخوف من المجيئ لهذه الحياة، وذلك المستقبل مجهول، والحزن الذي سيلازمها طوال حياتها على فقدان والدتها!.

هكذا الحياة تمنحنا الكثير بمقابل وثمن باهظ؛ لندرك قيمة الأشياء التي نملكها، وأيضًا قيمة الحياة!

بللت دموعه وجه طفلته الجميلة؛ التي تشبه أمها كثيرًا، كانت تنظر إليه وكأنها تشعر بما يدور في نفسه، تستشعر ما ينبض به قلبه من ألم، وإذا بها تتوقف عن البكاء؛ لتمنحه الأمل وتخبره أنها مستعدة منذ الآن أن تكون شريكته بالحياة بديلًا وتعويضًا عن رحيل أمها..

مكث يرى زوجته بكل ركن من أركان البيت، وأخذ يراقب طفلته عن كثب؛ وهي تنمو وتكبر أمامه، ما بين بكائها وضحكاتها الكثير والكثير، يمشط شعرها الذهبي كما كان يفعل لأمها، يتبادل معها الحديث وكأنها تفهمه وتدرك كل ما يتفوه به، كانت تنظر إليه بعينيها الساحرتين بشغف، وفهم وإدراك، كانت تجيد الإنصات إليه رغم صغرها..

لطالما جاهد نفسه طويلًا؛ محاولًا منع دمعاته من الفرار؛ لكنها تسقط رُغمًا عنه؛ لتمسك بها يد ابنته الملائكية، والتي أكملت عامها السادس؛ فيمسك بيدها ويقبلها ثمَّ يضمها إلى صدره لعلها تهون ما يشعر به من ألم..

لم تأخذ " سجدة " من والدتها جمال الشكل فحسب؛ لكنها أخذت الذكاء والحماس والإصرار أيضًا، كانت تريد إسعاد العالم من حولها..

وكان لديها حلمًا كبيرًا وجميلًا؛ فهي لا تريد أن يُعاني طفل أو تُعاني أم من آلام الفقد كما تعاني هى ووالدها، تريد أن يسعد الجميع، كان حلمها يتلخص في أن تجمعهم معًا جميعهم في مكان واحد عندما تكبر.

كان " رحيم " يعجب كثيرًا من هذا الحلم، ويشعر بالفخر بطفلته لرجاحة عقلها ومشاعرها السامية، ويتمنى أن يراه وقد تحقق واقعًا..

استيقظ "رحيم " قبل الفجر بقليل؛ فزعًا على صوت ابنته تتألم وتئن بجواره، نظر إليها وقد شعر بإحمرار في بشرتها، وضع يده على جبهتها وهاله ارتفاع حرارتها الشديد، تبدو وكأنها حمى

أخذ يحدث نفسه؛ بأنه ولابد من إحضار طبيب!

إنها قرة عيني؛ وما أحيا لأجله!

أخرجه من شروده عدم سماع صوتها...توقف فجأة ...أنفاسها توقفت..

الصمت ساد المكان؛ وكأنه ينذر بكارثة ما!

هل ماتت طفلتي؟!

هل ماتت وفارقتني أيضًا؟!

صار يهزها بشدة ويصرخ؛ كمَن أصابته حالة من حالات الجنون..

هل ستتركيني مثل أمك؟!

صرخة ألم فزعت لها القلوب واهتزت الأرض.. كادت معالم الحياة تتوقف حزنًا وغضبًا لوفاتها... ماتت الأحلام بفقدانها.. لم تحقق حلمها الجميل كجمال روحها.

لن تكفي أرواحكم كافة أمامها!!

ستزين مقابركم مقبرتها؛ لتؤنس وحدتها.. ستكون لعنتي هديتي.... أنتم جميعا أمام طفلتي.... أحياء أموات؛ بلا أمل!

الفصل الثاني

صرخة ملعونة دوت في سماء البلدة، الموت يحصد الأرواح كالطاعون...الحزن يُخيم على المكان، عزلهم عن كل مظاهر الحياة، ماتت الأحلام في مهدها، صاروا يدورون في متاهة الموت بلا سكون؛ بل أصبح البعض ينتظر دوره متقبلينه، ليس لها من دون الله كاشفة.

استمر الحال حولًا كاملًا منذ وفاة ابنته، أصبحت سعادة "رحيم " تتغذى على أوجاعهم؛ وكأنه عقاب لهم على جرم لم يقترفوه!

كانت تظهر ابتسامته عند سماعه خبر موت أحدهم؛ وكأنه هدية أخرى يرسلها لقبر ابنته.

ماتت الأحلام بموتها، وكذلك السعادة، قد جفت الدموع بمقلتيه؛ لكنها لم تجف بقلبه، فقد ظلَّ منعزلًا صامتًا، لا يظهر إلا بظهور ملك الموت حاصدًا للأرواح بينما قد استسلم الجميع لمصيرهم.

جلست " مريم " شاردة الذهن في إحدى المقاعد بالقطار، لم يكن لديها بديلًا عن الهروب والابتعاد، عن كل مَن تعرفهم والانتقال إلى مكان جديد، الهروب من قصة حب لم يكتب لها النجاح رغم سنوات الدراسة بكلية الطب؛ لكن منذ العام الأول وهى تشعر أن هناك خطأ ما في هذه العلاقة، وما كان لها الاستمرار؛ لكن آثرت إعطاء المزيد من الفرص له!

كانت هي الأكثر طموحًا وقوة؛ لأن كلية الطب كانت حلمها الأول، بينما "محمود " دخل الكلية رضوخًا لرغبة والده ليس إلا، هو باختصار شاب بلا طموح ولا أحلام، يفعل ما يريده الآخرون؛ لاسيما والديه.

بالنهاية شعرت أن حياتها معه؛ ستكون وفقًا لرغبات أسرته وليس رغباتيهما!

وليس هناك مجال للتغيير أو مزيد من الصبر؛ مما جعلها ترفض إتمام الزواج، وطالبت بنقل عملها ....لم تكن لتعلم أنها تسعى للهاوية؛ لكنه القدر اختارها لحكمة نجهلها!

وأخيرًا!.. توقف القطار عند محطتها، نهضت عن مقعدها، وقد شعرت بوخزة في قلبها، وشئ آخر يجرها من قدميها، ويقذف بها خارج القطار.....حاولت أن تثبت قدميها على الأرض؛ لكنها شعرت بنفس الشئ يدفعها من ظهرها لتتقدم..!

سارت بخطواتها؛ لكن دقات قلبها كانت الأسرع.. انقبض صدرها وقد وقعت عيناها على مشهد مهيب لجنازة تسير أمامها بعد خروجها من المحطة بقليل.

تُرى!.. هل جاء الموت ليستقبلني؟! ...همست بحزن؛ ولم تكن لتعرف أنه يقيم هنا منذ سنة، ولا يرغب بعد بالرحيل.

واصلت سيرها وصولًا للمستشفى لاستلام العمل، وهناك تعرفت على زملائها من أطباء وممرضات والمدير والغرفة التي ستقيم بها في الاستراحة.

لاحظت اختفاء البسمة من الشفاة، الترحيب بها يشوبه الفتور من الجميع، كلمات مقتضبة، اعتقدت بأنها تبالغ في ردة فعلها وقررت الانتظار بعض الوقت؛ حتى تتمكن من الحكم عليهم بصورة أوضح.

قررت أخذ قسط من الراحة؛ ثمَّ النوم مبكرًا لتبدأ يومها الأول بالعمل؛ وهى أفضل حالًا، مكثت طويلًا تصارع ذكرياتها ويغالبها النوم، تتقلب يمينًا ويسارًا بفراشها، تُصارع الوسادة وتتمنى لو كان الأرق رجلًا لتقتله، ومن ثمَّ تنعم بنوم هادئ....

وعلمت أن الهروب بالجسد فقط لا طائل منه، لابد أن تطوي هذه الصفحة من حياتها ولا تنظر إليها ثانيةً، تمزيق صفحة من الكتاب لا تعني نهاية الكتاب، لقد منحت " محمود " فرصًا عدة، ولم يعد لديها المزيد، إن أسرته هي صاحبة المقام الأول بحياته قبل وبعد ارتباطه بها.

رفعت رأسها قليلًا وأسندت ظهرها إلى الوسادة، في محاولة للاسترخاء مع عودة بالذاكرة لأحداث ما قبل النهاية!

أخذ "محمود " ينظر إلى هاتفه؛ وكأنه يحاول الهروب من نظرات " مريم " التي خرجت عن صمتها وقد نفذ صبرها لتزفر في ضيق: لماذا تتهرب مني كلما طلبت منكَ الذهاب لرؤية دهانات شقتنا؟!

أومأ برأسه؛ وقد بدا عليه التوتر، ثمَّ نظر إليها متحدثًا بنبرة توسل: لقد تغيرت الألوان التي وقع اختيارك عليها؛ فسامحيني!

اتسعت عيناها وقد امتلأت بالغضب؛ ثمَّ صرخت في وجهه بعد أن نهضت من مقعدها: إنها والدتك كعادتها تتدخل في كل شئ أريده وترغب في تغييره..... ثمَّ نزعت دبلته من إصبعها، وألقت بها على المنضدة، وغادرت المطعم بدون أن تشرب كوب الليمون الذي طلبه لها.

تنهدت " مريم "؛ ثمَّ أخفضت رأسها قليلًا ونامت على جانبها الأيمن وقد ضمت ساقيها متخذة وضع الجنين؛ لتشعر ببعض الأمان، ثمَّ ذهبت في سُبات عميق..

استيقظت " مريم " على صداع رهيب برأسها، كم كانت ليلتها الأولى قاسية، تناولت شطيرتها ثمَّ أخذت قرصًا مسكنًا، وبدأت عملها في قسم الطوارئ، القسم يضج بالحالات....

بدايةً قد رأت فتاة شابة تبكي بشدة بجوار فتاة صغيرة ممددة على الفراش، علمت منها أن اسمها " ثناء "، وأن الفتاة الصغيرة تبلغ من العمر تسعة أعوام؛ وهى شقيقتها الصغرى تُدعى " عائشة "، وقد أصابها دوار شديد وألم برأسها منذ استيقظت، فأسرعت بإحضارها... فحصتها " مريم " وطمأنتها وطلبت منها الذهاب للمعمل لعمل تحليل صورة دم كاملة؛ ثمَّ العودة لضرورة تعليق محلول لشقيقتها..

ذهبت " ثناء " مع " عائشة " إلى المعمل؛ وهناك قد تمَّ أخذ العينة منها، وأخبروها أن النتيجة سوف تتسلمها بعد ساعتين، عادت مرة أخرى لغرفة الطوارئ، وقد علقت لها " مريم " المحلول بالفعل؛ وأخذت تداعبها وتضحك معها حتى شعرت بتحسن ملحوظ، ثمَّ جاءت الممرضة بنتيجة التحليل ....نظرت " مريم " للتحليل باهتمام؛ ثمَّ ابتسمت..

وجهت بصرها إلى " ثناء " التي ظهر عليها القلق؛ قائلة:

عزيزتي ثناء!.. إن الأمر مطمئن كما توقعت، عندها نقص حديد ويجب الاهتمام بتوفره بغذائها وسأكتب لها فيتامين يحتوي على الحديد؛ ولتأخذ كبسولة واحدة منه يوميًا لمدة شهرين ثمَّ يتم إعادة التحليل...

احتضنت " ثناء " شقيقتها، وأخذت تقبلها مداعبة لها: لابد أن تكوني بخير قبل موعد زواجي الأسبوع القادم، ويسعدني

حضوركِ أيتها الطبيبة أيضًا!.. همست بهذه الكلمات وهى تنظر إلى "مريم " بود؛ كأنها تعرفها منذ زمن بعيد.

اومأت " مريم " برأسها بالإيجاب؛ وأردفت قائلة: يسعدني هذا فأنا غريبة عن هنا، وبعيدة عن أسرتي وأصدقائي، واتمنى عمل صداقات جديدة تبعدني عن عزلتي... إن اسمي "مريم " عزيزتي!

أسرعت "ثناء " تضمها وتشكرها وقد غمرتها السعادة، لقد شعرت بقرب وألفة نحوها بصورة غريبة، ولم تنصرف هى وشقيقتها إلا بعد دعوتها على الغداء بمنزل أسرتها في اليوم التالي، وأخبرتها أن والدها متوفي منذ عامين ولا يوجد غيرها وشقيقتها " عائشة " وشقيقتها " ابتسام " طالبة في الصف الأول الإعدادي وشقيقتها " أمينة " بالصف الأول الثانوي!

إنهن أربعة فتيات ووالدتهن؛ وأخبرتها بأنها ستمر لزيارتهن فور انتهاء عملها... كان يومًا شاقًا بعد ليلة مؤرقة، عادت إلى غرفتها وقد نال منها التعب بشدة، وترك آثاره واضحة على ملامحها.. ألقت بنفسها على الفراش بملابسها، وأغمضت عينيها خوفًا من فرار النوم وكأنها أوقعت به وغلبته أخيرًا!

استيقظت " مريم "؛ وقد أخذت قسطًا من النوم جعلها في حالة نفسية أفضل، أمسكت بحقيبتها وأخرجت محفظة نقودها، وأخذت

تنظر بداخلها؛ لترى كم تبقى معها من نقود، وإذا بصورة جعلتها تتوقف قليلًا، وتطلق تنهيدة حارة؛ إنها صورة " محمود "، أمسكت بها وأخذت تنظر إليها وكأنها تعاتبه على ما آل إليه الأمر بينهما، لقد كان هو حبها الأول الذي دقَّ له قلبها منذ الوهلة الأولى؛ لكن لولا ارتباطه المريض بوالديه خاصة والدته، لقد كان مسلوب الإرادة، كان زواجيهما محكومًا عليه بالفشل؛ لا محالة!..

أعادت الصورة داخل حافظة النقود، ثمَّ أغلقت الحقيبة ومعها ذكرياتها المؤلمة وخرجت للعمل؛ هى تحب عملها جدًا وتحب أن تخفف من آلام الآخرين على الرغم من شعورها بالألم..

انتهت فترة عملها، وحضرت " ثناء " وقد بدت عروس مشرقة لتصطحبها إلى منزلها، كان البيت قريبًا من المشفى .... بادرت " مريم " تسألها عن زفافها؛ وهل ستعيش بذات المكان أم ستنتقل بعيدًا؟

-أجابتها بحنو: نعم!.. سأقيم هنا بالقرب من أسرتي؛ فالعريس ابن عمي وليس غريبًا!.. قد ارتبطنا ببعضنا البعض منذ طفولتنا؛ وهو يعمل بالخارج وسيحضر بعد يومين إن شاء الله!... لكن يا د. مريم!.. لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟!... فأنتِ ما شاء الله جميلة جدًا، كما أنكِ طبيبة؛ فلستِ بالقليل؟!

ابتسمت "مريم " في محاولة لإخفاء حزنها؛ ثمَّ أجابت بصوت خافت: لقد كان موعد زواجي من زميلٍ لي قريبا؛ لكن تراجعت وفسخت الخطبة!.

سادت لحظات من الصمت... ثمَّ انقطع الحديث لبلوغهما المنزل؛ دلفا داخل الشقة، وقد كانت والدة " ثناء" وشقيقاتها في استقبال الطبيبة بفرح شديد..

شعرت معهن بالألفة؛ تجاذبن أحاأطراف الحديث، وقد تطرقن لأحاديث كثيرة، وتناولت معهن الطعام، ثمَّ جلست بصحبة " ثناء" في غرفتها، يكملا حديثيهما الخاص بزواج "مريم " الذي لم يكتب له النجاح بسبب سلبية " محمود " أمام والديه وحرمانها من حرية اختيار حتى أثاث ودهانات شقتها هي ومحمود؛ فالقرار لأهله في كل شئ..

وأخبرتها أن قرار عدم إتمام الزواج كان قرارًا صعبًا ومؤلمًا على نفسها، مما جعلها تترك كل شئ وتغادر وتنقل عملها.... امتزجت كلمات "مريم " بالحزن والدموع فاحتضنتها " ثناء " وشاركتها البكاء، وأخذت تُقبلها وتهون عليها..

- إن أقدار الله كلها خير حبيبتي!.. وسيعوضك الله خيرًا كثيرًا؛ فأنتِ شخصية رائعة للغاية، وأنا سعيدة بصداقتنا..... حقًا قد يكون ظاهر الأمور الشر؛ لكن بداخلها الخير الكثير مثل انتقالك

هنا ثمَّ مرض شقيقتي، قد يكون من وراء هذا كله حكمة لا يعلمها إلا الله!

كانت كلمات " ثناء " بمثابة الدواء لسقم روحها... ابتسمت " مريم " وحمدت الله على صداقتها بثناء ذات الروح الطيبة الجميلة ...

وفي نهاية اللقاء؛ قدمت "ثناء " لها زجاجة عطر كهدية، أسعدتها بشدة، تبادلت القبلات والتحايا مع والدة وشقيقات "ثناء"؛ ثمَّ غادرت وهى تشعر بالأمل الذي كاد يموت بداخلها.... كان ذلك ميلادًا جديدًا لنفس تتوق للسعادة وتتشبث بالحياة، عادت للسكن ونامت لأول مرة منذ فترة؛ وهى تشعر بالسكينة.

على الصعيد الآخر؛ نامت " ثناء " وهى تحلم بيوم عرسها، وقد بات وشيكًا، غائبًا عنها أن هناك لعنة تترصدها لتنقض عليها، لعنة تحرم عليهم ما أحلَّ الله لها، لن تسمح لها بالسعادة ولن تهدأ إلا بازدياد مقابرهم... نامت وهى لا تعلم أنها لن تعود إلى الحياة مجددًا، لن تحقق حلمها؛ فقد جاء دورها!

استيقظت "مريم " فزعة على أصوات صراخ ونحيب وجلبة شديدة، استعدت سريعًا ولم تتناول أى شئ ودلفت خارج الغرفة.... كان هناك أمرًا غير عادي لم تفهمه، ليس تلك مجرد حالة وفاة؛ فأن يموت مريضًا أو مريضة أمرًا مألوفا بالمشفى؛

لكن ما تستشعره من الجميع غامضًا، توقفت فجأة وقد اتسعت عيناها وتسارعت دقات قلبها!

أفزعها رؤية والدة "ثناء" وشقيقاتها ينتحبن ويصرخن أمام غرفة الطوارئ المغلقة، وقد كانت الأم جالسة على الأرض وأخذت تضرب وتلطم بكفيها على وجهها، أسرعت نحوهن وقد وضعت يدها اليُمنى على قلبها، أخذت تنظر إليهن وتتفحصهن.

" ثناء " ليست معهن!.... أخذت تصرخ بسمها بصوت مختنق؛ ثناء!!!!!!!

أين ثناء؟!!!!.... لكنها لم تحصل على أية إجابة.

تمتمات غريبة لم تفهم مغزاها من المارة، ومن بعض العاملين... " لقد جاء دورها! "..

أى دور؟!... أسرعت تفتح باب الحجرة دخلت إليها، عيناها زائغتان تبحث في كل مكان، وإذ بجسدٍ ممددٍ على فراشٍ بنهاية الحجرة، وقد تمت تغطيته ولا يظهر منه شئ!... أسرعت نحو الفراش ورفعت الغطاء بيدٍ مرتعشة.... شهقت وصاحت بصوت مرتفع: يا الله! .... ثناء!!!!!

كانت" ثناء " ممددة مغمضة العينين وقد فارقت الحياة... انهمرت الدموع زخات على وجنتيها غير مصدقة لما تراه.. ماتت

العروس الجميلة قبل عرسها.. ماتت مَن بعثت في نفسها الأمل من جديد بكلماتها العذبة!

أخذت تقبلها على جبينها، وقد كاد قلبها أن يتوقف من هول الصدمة... أسرعت إليها زميلتها تهدئ من روعها وتحاول إبعادها عن " ثناء"؛ وهى تبكي بشدة، علمت منها أنها أصابتها حمى شديدة وقاتلة أثناء نومها.... غادرت الحجرة؛ وهى لا تقوى على السير، قدماها بالكاد يحملانها!

جلست بجوار والدة " ثناء "؛ وأخذت تقبل رأسها وتبكي، وتردد على مسامعها؛ أن ابنتها ذهبت عند أرحم الراحمين لتكون عروسًا بأعلى الجنان، إن شاء الله!

انتهت إجراءات خروجها جثمانها من المستشفى، ووصلت إلى منزلها في سيارة نقل الموتى.... تمَّ تغسيلها وتكفينها ومن ثمَّ تشييع الجنازة إلى المسجد للصلاة عليها بعد صلاة العصر مباشرة، ثمَّ أخيرًا الدفن!

قررت " مريم " حضور الجنازة؛ لتودع صديقتها حتى مثواها الأخير... سارت في نهاية الجنازة بمفردها تذرف الدموع في صمت ثمَّ لاحظت رجل أبيض البشرة، ثلاثيني، طويل القامة، نحيف، يسير على مقربة منها، وذو لحية كثيفة، يسير بمفرده

بعيدًا عن الآخرين، رأته يبتسم بصورة غريبة... تساؤلات كثيرة ودهشة من تصرفه المشين هذا!

كيف له أن يبتسم؟!... في ظل هذا المشهد المفجع؟ فللموت حرمة وهيبة!... وكأنه كان يشعر بنوع من الشماتة والتشفي والفرح لموت " ثناء "!... شعرت باشمئزاز وحنق عليه ....ظلَّ متابعًا حتى وصول الجثمان إلى المقبرة وتهلل وجهه فرحًا عند دخولها القبر.

قررت تجاهل الأمر؛ فحالتها لا تسمح بالمزيد من الضغط عليها، ثمَّ عادت إلى غرفتها؛ وكأنها عائدة من العالم الآخر لا حياة بها... جسد خاو وملامح شاحبة... ألقت بنفسها على الفراش غير مصدقة... شتان بين الأمس واليوم وما أحوجها للخوف من الغد!... من المجهول!

الفصل الثالث

هزَّ موت " ثناء" مشاعر " مريم " بقوة، أعادها لظلمات نفسها عودًا مؤلمًا بلا رحمة، لعبت بها ظنونها فارتفعت بها وحلقت صوب السحاب، ثمَّ كان سقوطها مدويًا، باتت تنعي حظها العاثر وتبكي، لابد لها أن تهزم ضعفها، تخرج من أزماتها وقد ازدادت قوة..... بالنهاية شعرت بوهنٍ شديد، وتثاقلت رأسها وأخذت تتثاءب فاستسلمت للنوم؛ فلربما يأتِ الغد أفضل!.

فتحت عينيها بصعوبة، وكأنها كانت أفضل حالًا في موتها المؤقت هذا، خمول وفقدان الرغبة بالعمل، تحاملت على نفسها ونهضت من مرقدها واستعدت للعمل، كانت غرفة الطوارئ ممتلئة كعادتها بالحالات.

جذب انتباهها فتاة عشرينية تمسك بجانبها الأيسر وتبكي بشدة، صارت تتقلب يمينًا ويسارًا بالفراش من شدة الألم وبصحبتها امرأة يبدو أنها والدتها، كانت تحاول تهدأتها وتربت عليها بحنو، أسرعت إليها وسألتها عن موضع الألم بدقة، وعملت على فحصها، بالنهاية أعطتها حقنة مسكنة للألم؛ ثمَّ طلبت منها إجراء تحليل للبول وعمل أشعة مقطعية على الكلية للاطمئنان على الأملاح والحصوات ثمَّ إحضار النتائج لها، مكثت الفتاة دقائق قليلة حتى هدأ وسكن الألم تدريجيًا.

شكرت الأم " مريم " وأخبرتها أن الفتاة " أمل "؛ هي ابنتها الوحيدة بعد شابين أكبر منها قد تزوجا، وأن "أمل " مخطوبة "

لابن عمتها " عثمان " وقد اقترب موعد زواجيهما، وقد شعرت بآلام مشابهة أكثر من مرة؛ لكنها رفضت الذهاب للطبيب، وأن الألم زاد بصورة كبيرة اليوم.

انصرفت الأم وابنتها لإجراء التحليل والأشعة، وبعد ساعة تقريبًا عادا بالنتائج؛ فحصت "مريم " الأشعة وقرأت نتيجة التحليل ثمَّ توجهت بنظرها لأمل:

الأمر يحتاج اهتمام فعلًا؛ خاصة وقد اقترب زواجك كما ذكرت والدتك، عندك أملاح بصورة كبيرة جدًا وأيضًا هناك حصوة صغيرة جدًا بالكلية اليسرى، لابد من شرب كميات وفيرة من المياه يوميًا، على الأقل لترين وأيضًا سأكتب لكِ على فوار تأخذيه ثلاث مرات يوميًا، ودواء أقراص ومسكن عند اللزوم، و إن شاء الله تنتهي المشكلة..... استمري على الأقل لمدة شهر ليتم إعادة التحليل والأشعة للاطمئنان!

شكرتها " أمل " ووعدتها بالتزام التعليمات؛ ثمَّ غادرت مع والدتها بينما أكملت "مريم " عملها.

في طريق عودتيهما اتصل "عثمان "؛ ليطمئن عليها بعد معرفته من زوجة خاله، أنها ستذهب بأمل للمستشفى لأنها متعبة...

عثمان؛ شاب ثلاثيني قد تخرج من كلية الآداب قسم اللغة عربية، طويل، نحيف، تميل بشرته للسمرة، يعمل معلمًا بإحدى المدارس الثانوية، يحب القراءة والشعر، يعشق كتابة الخواطر، بدأ محاولته الأولى في كتابة رواية من أدب الرعب الذي يعشقه اسماها (صائد القلوب)!..

ويتمنى أن يصبح كاتبًا مشهورًا، وأن يكون لديه دار نشر خاصة به؛ لنشر أعماله وتقديم الدعم لأصحاب الأقلام الموهوبة أيضًا..

تربطه قصة حب منذ صغره بابنة خاله " أمل "، ويتمنى أن يكمل شقته ليتم زواجه بها، في القريب العاجل..

إنه شاب مرح ومتفائل للغاية، لم ينل من عزيمته ما يحدث من حصد للأرواح على مدار العام؛ فرغم كل هذا استمر بالكتابة بجانب عمله، وأوشك على الانتهاء من روايته؛ ليشارك بها في مسابقة تمَّ الإعلان عنها واقترب موعد غلق باب قبول الأعمال.

طمأنته " أمل " وأخبرته بما حدث بالمشفى؛ وأنها أفضل حالًا بعد تلك الحقنة المسكنة وأنها ستلتزم بالدواء وكافة التعليمات، فأخبرها بحضوره للاطمئنان عليها في المساء؛ فرقص قلبها

طربًا وأشرق وجهها بعد شحوب الألم وتبسمت والدتها على تبدل حالها هكذا!

على الجانب الآخر؛ من المكان ومن الحياة، بعيدًا... بعيدًا ... في عزلته، يجلس " رحيم " في غرفته وقد أطال النظر في صورة زوجته، وصورة ابنته، أصبحت عيناه كقطعتين من الجمر، تذرفا حممًا ملتهبة، بات جسدًا بلا قلب؛ فقد مات بموت " سجدة "، وأصبح لا يرغب بمغادرة الحياة إلا بعد القضاء عليهم جميعًا، يستمتع بآلامهم ويضحك مع صرخاتهم، يقدمهم قرابين لها لترضى، صرخاته مازالت تزلزل الأرجاء.... صرخات ولعنات، وحشة وظلمة..

وبالقرب منه صديقه المقرب؛ إنه قطه الأسود "صخر"... يراقبه في صمت وكأنما يعلم ما يدور بخاطره..... صار رفيق دربه ورحلته الملعونة هذه..

انتهت" مريم " من العمل وقررت أن تخرج للسير قليلًا بالقرب من المشفى، هناك شعور خفي بداخلها نحو هذا المكان تعجز عن فهمه، مازالت ترى أنها لم تأتي إليه بإرادتها؛ لكن قد تفهم مع الوقت كل شئ، ليست بمفردها التي يسكنها الحزن، فالمكان كله غارق في الحزن، تراه بأعين الناس والأطفال وتراه واضحًا جليًا على الوجوه..

بينما تسير وقد تزاحمت الأفكار برأسها؛ فابتعدت دون شعور منها؛ إذا بها بجوار سور تابع لحديقة منزل، لا تظهر به أى إضاءة، شعرت بانقباض، فالحديقة خالية من أى مظاهر للجمال، وكأنما حزنت لفقدان عزيز عليها؛ فآثرت الخواء، وإذا بها تشهق فجأة بصوت عالٍ، لتسقط حقيبتها من يدها، فقد لامس قدمها قط أسود مخيف، ثمَّ وقف أمامها وأخذ ينظر لها نظرات غاضبة عقابًا لها على وجودها بالقرب من المنزل... التقطت حقيبتها بسرعة وغادرت بخطوات مسرعة وأنفاس لاهثة!

لم تصدق نفسها أنها بغرفتها، جلست على الفراش غير مصدقة لما فعله هذا القط، كان يدرك ما يفعل جيدًا!

تمتمت لنفسها بحزن " يبدو أن كل شئ هنا غريب وليس البشر فقط، الله المستعان!.. أمسكت بمجلة بالقرب منها وأخذت تتصفحها لتبعد عنها تلك الأفكار وتُلهي نفسها..

دقَّ جرس الشقة، أسرعت " أمل " صوب الباب؛ إنها رنة "عثمان " المعتادة، فتحت الباب لتجده أمامها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تفيض شوقًا وسعادة!

دلف داخل الشقة؛ ومد يده إليها بعلبة حلوى كبيرة ومغلفة.

-السلام عليكم!... كيف حالك أعز الناس؟!

-بادلته الابتسام، وأخذت منه العلبة؛ وأجابته بحنو:

وعليكم السلام! ....أنا أفضل حالًا حمدًا لله..

ألقى السلام على والدتها وجلس على مقعد قريبًا منها، أحضرت له " أمل " كوبا من عصير المانجو الطازج، وكوبًا من الماء وجلست بالقرب منه أيضًا.

اطمئن "عثمان " على التزامها بالتعليمات ،وأخذها الدواء، وتابع حديثه عن سعادته باقتراب اكتمال روايته والانتهاء منها، بعد عودته وكتابته مشهد النهاية؛ ليقدمها في الصباح للمسابقة؛ لتكون تلك أول خطوة في تحقيق حلمه ليجتمعا معًا... غادر "عثمان " مودعًا خطيبته على أمل اللقاء قريبًا والاحتفال بالفوز بالمسابقة.

عاد إلى منزله وكله حماس وتفاؤل كعادته وعكف على إنهاء روايته..... وفي اليوم الذي أنهى به كتابة روايته، وصار قريبًا من تحقيق أحلامه، كان للموت رأيا آخر، وكان هو الأقرب إليه... خلد للنوم بعد أن همس لنفسه:

اليوم أنهيت روايتي وبات حلمي قاب قوسين أو أدنى؛ لكن أحلامه لم تخلد ولم تهدأ؛ فقد مكثت بعقله ترقص فرحة غير مكترثة بفداحة جرمها... فقد دفع حياته ثمنًا لها..

استيقظت "مريم " مبكرًا على أصوات جلبة وصراخ؛ لتعلم بوفاة " عثمان " خطيب " أمل "، وكان قد أحضرته أسرته مصابًا بحمى شديدة لإسعافه؛ لكنه فارق الحياة!.... لم تعرف انه أحد الممنوعين من الأحلام.... مات لأنه تمرد... فقد حياته بسبب ثلاثة أحرف (ح-ل-م)..

أن يموت شابًا بالحمى ليس أمرًا عجيبًا؛ لكن أن يموت بنفس الأعراض التي أدت لوفاة "ثناء " أيضًا، وزاد من مخاوفها ما تردد على مسامعها... شهيد حلم آخر... لن تنتهي اللعنة وسنموت جميعًا.... نرحل أو نموت... صمت... رعب!

لم تفهم ما حدث؛ ولن تصل بعقلها لتفسير واضح!

أخرجها من كل هذا انهيار " أمل " ورفضها مغادرة غرفة الطوارئ... أعطتها حقنة مهدئة لتنام بعض الوقت؛ حتى انتهاء الإجراءات ودفن الجثمان... قررت حضور الجنازة كما فعلت مع " ثناء ".. هناك شئ غريب يدفعها بغير إرادة منها منذ حضرت هذا المكان الذي تفوح منه رائحة الموت بدلًا من رائحة الأزهار..

خرجت "مريم " تسير خلف الجنازة لتراه مجددًا... إنه هو.. ذلك الرجل يسير بمفرده ويبتسم كما فعل بالجنازة السابقة... نظرت إليه بامتعاض؛ فتواجهت عيناها مع عينيه التي بات السواد بها

حالكًا كالليل البهيم... سواد عجيب... وقد نظر لها نظرات مخيفة أصابتها برعشة في جسدها؛ وكأنه يعلم أنها تراقبه، كان يتفحصها كقناص يراقب فريسته ويكيد لها.

فأسرعت بالانصراف والعودة للمستشفى؛ ثمَّ دلفت داخل غرفتها وألقت بنفسها على الفراش وانخرطت في بكاء شديد.... ظلت تنتحب وتتمتم بصوت مختنق:

ماذا يحدث هنا؟ مَن هذا الرجل؟

هل هو مَن يقتلهم؟.. يبدو أنه مصابًا بالجنون!

لابد أن أفهم!.. إن تواجدي معهم ليس محض صدفة!.. أشعر أن القدر جاء بي هنا لحكمة!.... ليس لي سواك يا الله!.. كن عونًا لي لأساعد هؤلاء الناس!

الفصل الرابع

مكثت "مريم " بغرفتها في صراع مرير مع نفسها، وقد طلبت أجازة لمدة يومين لشعورها بالإجهاد، كما أنها تشعر بعدم الرغبة في رؤية أحد ولا التحدث بكلمة واحدة، تشعر بشئ ما تعجز عن فهمه يدفعها إلى هذا الأمر؛ وكأن القدر اختارها دون غيرها من أجله، هذا الرجل هو محور هذه الأحداث المؤلمة بصورة ما!

هل هو ساحر؟!

كادت تفقد عقلها من كثرة التفكير، ذهبت ذكرياتها في مهب الريح، وضاعت في وادي النسيان فجأة، أصبحت لا تفكر إلا في هذا المكان، وما يحيط به من أسرار وغموض؛ وكأنها تحولت من طبيبة إلى محقق سري وخاص يسعى لكشف لغز مرتكب الجرائم.... نعم جرائم!... ليست تلك الوفيات حالات وفاة طبيعية، هل تنجو بنفسها وترحل أم تواجه معهم هذا البلاء العظيم؟

قررت الخروج من عزلتها، ومواصلة عملها ومحاولة فهم الأمور بصورة أوضح!

لابد لها من التحدث معهم ومعرفة هوية هذا الرجل!.. عبارة همست بها بعد صمت طويل..

غادرت غرفتها وقد عقدت عزمها على مواجهة مخاوفها والبحث عن الحقيقة مهما بدت مخيفة.... أخذت تنظر إلى الجميع نظرات مفعمة بعلامات الاستفهام؛ وكأنها تسألهم عن هوية مَن سلب

حقهم بالحياة، مَن جعلهم أحياء أموات بلا روح، مَن يرقص على جثثهم رقصة الانتقام لسبب لا تفهمه، إنه عقاب جماعي..

مكثت وظلت هكذا تجري حديث للعيون وصولًا لغرفة الطوارئ، أسرع إليها طفل صغير فور دخولها، متوسلًا إليها رؤية والدته المتعبة... أسرعت بالفعل إليها وفحصتها، كانت تشكو من ألم برأسها وهبوط شديد وتبكي، يبدو عليها سوء التغذية والإجهاد، وجدت " مريم " الضغط منخفض بصورة ملحوظة....

طلبت من الممرضة تعليق محلول ملح لها سريعًا، وكتبت لها على فيتامين يحتوي على العناصر الهامة التي تحتاج لها يوميًا، ونصحت بتناول قرص يوميًا بعد الغداء مع كمية كافية من السوائل، وطلبت عمل تحليل صورة دم كاملة لها.. أخذت ترمق الطفل بابتسامة، وهو يربت على رأس والدته بحنو.

وسألته عن اسمه؛ أجابها بخجل وقد احمرت بشرته البيضاء: عبد الرحمن!

-كم عمرك ؟

-ثمانية أعوام!

أمسكت والدته يده اليمنى، وأخذت تقبلها؛ وهى تبكي!

-عبد الرحمن ابني الوحيد، توفى والده بعد ولادته بعامين وليس لي غيره، أعمل كخادمة في البيوت لأدفع إيجار الشقة وأنفق على

البيت ومصاريف دراسته؛ هو متفوق ويحب المدرسة وعنده موهبة الغناء، صوته جميل ، وليس له غيري!.. فقط أريد الشفاء من أجله!

امتلأت عين " مريم " بالدموع... الأمومة فعلًا عاطفة سامية مجردة، وهذه الأم تتفانى من أجل تربية ابنها، ولو على حساب جسدها النحيل، ولا ترغب بالحياة إلا لأجله... خرجت من شرودها واسرعت بضم " عبد الرحمن " في حنان وطلبت منه أن تسمع صوته في أغنية من اختياره..

نظر إلى أمه وبدأ يغني بصوت عذب رائعة المبدع " حسين السيد " والمتميز " عبد الوهاب " والصوت الرائع " فايزة أحمد "..... أغنية ست الحبايب..

****

ست الحبايب يا حبيبة يا أغلى من روحي ودمي

يا حنينة وكلك طيبة يا رب يخليكي يا أمي

يا رب يخليكي يا أمي يا ست الحبايب يا حبيبة

زمان سهرتي وتعبتي وشيلتي من عمري ليالي

ولسة برضو دلوقتي بتحملي الهم بدالي

أنام وتسهري وتباتي تفكري

وتصحي من الآذان وتيجي تشقري
يا رب يخليكي يا أمي يا ست الحبايب يا حبيبة
تعيشي ليا يا حبيبتي يا أمي ويدوم لي رضاكِ
ده أنا روحي من روحك انتي وعايشه من سر دُعاكِ
بتحسي بفرحتي قبل الهنا بسنة
وتحسي بشكوتي من قبل ما أحس أنا
يا رب يخليكي يا أمي يا ست الحبايب يا حبيبة
لو عشت طول عمري أوفي جمايلك الغالية عليا
أجيب منين عمر يكفي و آلاقي فين أغلى هدية
نور عيني ومهجتي وحياتي ودنيتي
لو ترضى تقبليهم دول هما هديتي
يا رب يخليكي يا أمي يا ست الحبايب يا حبيبة.. حبيبة!

****

وحينما فرغ من الغناء، أسرع نحو والدته يقبلها؛ بينما لم تصدق " مريم " نفسها من صوت وأداء هذا الطفل الموهوب، التف حوله كل مَن بالغرفة، وصفق الجميع تحية له، وارتفعت الأصوات بالدعاء له بمستقبل باهر...

شعرت "مريم " بروح التفاؤل تدب في أوصالها بعد غناء " عبد الرحمن "؛ وكأنها كانت في انتظار بصيص نور وأمل يخرجها من هذه الوحشة التي تعيش بها والغموض الذي يحيط بأرجاء المكان، تغطيه هالة من اليأس والإحباط..

اطمئنت على حالة والدته وارتفاع الضغط ليعود إلى المعدل الطبيعي بصورة أفضل، وشاهدت صورة الدم ونصحتها بالاهتمام بتنوع ما تتناوله، والنوم بصورة كافية، ووعدتها بأن تجد لها وظيفة بالمستشفى كعاملة؛ لتكون أفضل حالًا من العمل بالبيوت، وأيضًا سيكون لها متابعة علاجية مجانية لها ولابنها، وطلبت منها الحضور بعد يومين... شكرتها الأم كثيرًا وأخذت تدعو لها بكل ما هو جميل، ثمَّ انصرفت مع ولدها بحال غير الحال الذي جاءت به، وقد حمدت الله فهو مسبب الأسباب، واستبشرت خيرًا بمريم .

على الجانب الآخر؛ هناك "رحيم " وقد غادر صوب مقبرة زوجته وابنته وبجواره كالظل قطه "صخر"، وما أن وصلا حتى جثى على ركبتيه أمام المقبرة، وظلَّ ينتحب ويصرخ؛ بينما أومأ القط برأسه وكأنه يشاركه ما به من وجع ويدرك كم هو يتألم!

وفجأة توقف عن الصراخ وبدأ يتحدث في مواجهة المقبرة، وقد جحظت عيناه وأسود أسفلهما وبدا كمَن تسابقت عليه السنين؛ قائلًا:

أعلم أن ما أرسله لكما من هدايا بين الحين والآخر يسعدكما، ويخبركما أنني لم ولن أنساكما أبدا، ماتت الأحلام بفقدكما وبات الألم رفيقًا في كل بيت، ذبلت الأزهار وشحت الأمطار وساد السواد، انتظروا المزيد فمازلت أشعر بالانتشاء ولم تهدأ روحي.. قال كلماته هذه ونهض من مكانه واقفًا على قدميه وأخذ يضحك كالمجنون مبتعدًا عن المكان، يتبعه " صخر "..

واصلت "مريم " عملها باليوم التالي، ومازالت الأفكار متزاحمة برأسها حول ما يحدث، اقتربت من زميلة لها وهمست بصوت منخفض يشوبه الحذر: لماذا يموت كثيرون بالحمى، وبنفس الأعراض، وأثناء النوم، ولا نتمكن من إنقاذهم؟.. أشعر أن هناك امرًا غريبًا.

امتعض وجه زميلتها؛ وكأن آلمها شئ ودمعت عيناها، ثمَّ ابتلعت ريقها بصعوبة محاولة التحدث:

أصابتنا لعنة منذ عام تقريبًا!..

ارتعدت فرائسها فور سماعها كلمة لعنة، وشعرت ببرودة تسري بجسدها، ومكثت تنظر إليها لحظات في صمت محدق؛ بينما أومأت زميلتها برأسها في انكسار؛ وتابعت حديثها الهامس:

فقد رجل ابنته الوحيدة بعد بلوغها العام السادس، وقد توفت زوجته أثناء ولادتها، ماتت بحمى فى وقت متأخر قبل الفجر بقليل، ومنذ هذا الوقت كثرت حالات الوفاة بهذه الحمى وبأعراض مشابهة، وفي نفس الوقت وأثناء النوم، كانت طفلة جميلة ومحبوبة؛ يقال أنها كانت تشبه والدتها؛ لكن لا أفهم سبب اختيار البعض للموت كما ماتت الطفلة، هناك مَن يموتون بصورة طبيعية أو نتيجة حوادث او أمراض معينة!

اخذت صورة الرجل الذي شاهدته أكثر من مرة يبتسم خلف كل جنازة تزاحم افكارها بشراسة وتعلن عن نفسها، أغمضت عيناها وأخذت تسأل نفسها بهمس غير مسموع:

هل هو والد الطفلة ؟!... هل صدق حدسها بشأنه!.. كل الدلائل تشير إليه..

خرجت عن صمتها؛ ثمَّ أجابت زميلتها:

يبدو أن هذه اللعنة لها اختيار فعلًا وعلينا أن نعلم ما هو؟

أكملت عملها في هذا اليوم في صمت، لا تتحدث إلا للضرورة وبصورة مقتضبة؛ فالأمر جد خطير، ومازالت ترى نفسها وقد تمَّ استدراجها لهذا المكان لسبب ما، قد تجهله حاليًا؛ لكن ستعرفه لا محالة!

كانت مفاجأة سارة لها رؤية " عبد الرحمن " ووالدته وقد ظهرت السعادة واضحة عليهما، أخبرتها والدته أن غناءه بالمستشفى كان خيرًا كبيرًا لهما، جاءت على آثره فرصة رائعة لابنها.... إنه لقاء في برنامج للمواهب الصغيرة بالتلفاز غدًا في الصباح تمت معرفتهما به منذ قليل وقد حضرا لتكون هى أول مَن يعلم بهذا الخبر السار!

كان خبرًا رائعًا تحتاج إليه "مريم " حقًا في خضم ما عرفته وتشعر به، أسرعت تضم عبد الرحمن، وتقبله وتدعو له بالتوفيق والتألق، ووعدته بمشاهدة اللقاء، وهنأت والدته وأخبرتها بتوفير العمل لها بالمستشفى من بداية الأسبوع القادم..

سعادة بالغة غمرت النفوس الحزينة والمتعبة خاصة " عبد الرحمن "... هذا الطفل الذي فقد والده منذ صغره ولا يتذكره، واعتصر فؤاده ألمًا من أجل والدته وما تفعله لأجله؛ وهو عاجز عن مساعدتها، بلغت سعادته عنان السماء، أغمض عينيه يحلم باللقاء المقترب، بالحلم الذي سيغير حياتهما، غاب عنه ما يتربص به، غاب عنه لعنة ترصد الأحلام وتقتلها في مهدها، نام وقد فارق هذا المكان الملعون بلا عودة؛ فلا مكان لقلب ينبض بالحياة هنا!

استيقظت " مريم " على طرقات شديدة على باب غرفتها؛ فأسرعت وقد شعرت بالفزع والقلق، إذ بها ترى زميلتها تبكي

بشدة وتردد بصوت مختنق: لقد مات!... مات!... قد وقع عليه الاختيار!

أخذت " مريم " تهز كتفها بشدة وقد حملتها قدماها بصعوبة " مَن هو؟ ماذا تقصدين؟

- "عبد الرحمن "!... الطفل الصغير، أصابته الحمى ومات أثناء نومه، لقد اختارته اللعنة اليوم، لم تنقذه طفولته البريئة منها، سقطت أمه مغشيًا عليها عندما أخبروها بوفاته، كان الله بعونها!

وضعت " مريم " يدها على فمها تكتم صرخة أرادت أن تخرج بدون وعى منها، ثمَّ جلست على الفراش وقد انهمرت الدموع من عينيها بلا توقف، عجزت عن الكلام، شعرت برغبة في فقدان الإحساس بكل شئ ولو بعض الوقت، خارت قواها هذه المرة بصورة عجيبة.

إن هذه اللعنة لا ترحم الشباب ولا ترحم الطفولة؛ هى لعنة ضد كل ما هو ينبض بالحياة ويتمسك بها ويصبو إليها.. مات " عبد الرحمن "!

الفصل الخامس

اهتزت القلوب لوفاة " عبد الرحمن" فقد اغتيلت البراءة بيد اللعنة الآثمة لأول مرة منذ بدايتها، جفت الدموع بالمآقي، أصيبت الألسنة بالشلل.. يا لها من جنازة مهيبة!

سارت " مريم " خلفها رغم ما حدث لها من انهيار، كان جسدها يرتجف، عيناها تبحث في كل مكان بهلع، لحظات قليلة وظهر " رحيم " على مقربة منها، وقد لمعت عيناه وأشرق وجهه، وكشفت ابتسامته العريضة عن أسنانه البيضاء، كاد قلب "مريم " أن ينخلع، لم تتمالك نفسها وأسرعت نحوه ووقفت في مواجهته وقد اتسعت عيناها الدامعتين ثمَّ أشارت بيدها اليُمنى إليه وبصوت قوي رغم رجفة الحزن الممتزجة به:

-كل هذه الأرواح في رقبتك تلعنك، وروح " عبد الرحمن " ستلازمك من الآن وتهلكك، إن لعنتك مردودة عليكَ لا محالة، ومن الآن فصاعدًا سأكون أنا مَن يقف أمامك، ولا أخافك!.... اللعنة عليكَ وعلى ما ينمو بداخلك من غل على هؤلاء الأبرياء!.. اللعنة عليكَ أنتَ!.... ما إن أتمت كلماتها النارية حتى أجهشت بالبكاء.

إنها المرة الأولى؛ منذ عام تقريبا أن يواجه أحد ما " رحيم "، وبهذه العبارات القاسية!

أخذ ينظر إليها بصورة غريبة؛ وكأنه كان بحلمٍ ثمَّ استيقظ منه على نحو مفزع، لم تكن كلماتها هى المفاجأة الوحيدة التي باغتت صدمته؛ لكن كانت تامفاجأة تكمن في أن مريم كانت قريبة الشبه من زوجته وابنته بصورة تعجب منها في نفسه....

نفس البشرة البيضاء الملائكية، الشعر الذهبي المنسدل على كتفيها، ظلَّ صامتًا أمام بكائها ونحيبها، شعر بشئ في قلبه افتقده منذ وفاة ابنته، هناك أمر لا يفهمه يحدث بداخله نحو تلك الفتاة، مشاعر تحيا من جديد بعد موت مؤقت رغم قسوتها معه ونبرة التحدي في خطابها..... بالنهاية آثر أن يتركها ويغادر المكان، وقد غابت ابتسامته لأول مرة في حضرة الموت.

رغم حالة الإعياء الشديدة التي بدت على " مريم " إلا أنها قررت متابعته دون أن يشعر بها، أخذت تسير خلفه وصولًا إلى منزله الذي كان منظره مفاجأة لها، ظهر المنزل الذي أفزعها بجواره القط المخيف، المنزل الذي بدت حديقته خالية من أي مظاهر للحياة مثل مَن يعيش في كنفها، كانت تشبهه كثيرًا، أدركت سر احتضار هذا البيت!... أسرعت بالمغادرة خوفًا من ملاحقة القط لها!

دلفت داخل غرفتها وألقت بجسدها على الفراش؛ وهى في حالة مزرية، تلاحقها صورة " عبد الرحمن " وصوته العذب

وابتسامته البريئة، وأيضًا صورة " رحيم " ونظراته إليها وصمته أمام كلماتها!...

وقد أخذت تتقلب في فراشها لا ترغب إلا في النوم، في توقف للحياة بعض الوقت، في الصمت وحسب!...

للمرة الأولى منذ عام لا يشعر " رحيم " بالهدوء والسكينة بعد نجاح اللعنة في استهداف أحدهم، هدية جديدة في طريقها إلى المقبرة، ظلَّ يجول في غرفته ذهابًا وإيابًا؛ وهو يزمجر وخلفه "صخر " يفعل مثله، شعر بالعجز أمامها، تألم وهو يراها تبكي وتصرخ، سرقت فرحته، سلبت قوته و جبروته، شعر بالانكسار والخذلان أمام زوجته وابنته، ظلَّ يلوم نفسه ويزجرها بشدة، يضرب بيده على الحائط، يركل كل ما يعترض طريقه؛ حتى أنه ركل "صخر " بغير وعي ركلة قوية آلامته فأخذ يئن مبتعدًا عنه؛ حتى جلس على مقربة من الفراش، مكث على هذه الحالة حتى غلبه النوم، غلبه كما غلبها أيضًا بعد صراع مرير؛ فالنوم هنا في حالتيهما يُعد نوعًا من أنواع الهروب، الهروب والفرار من أمور تفوق قدرة احتمالنا؛ فالنوم هو ذلك الموت المؤقت والذي قد يعقبه عودة للحياة وقد لا نعود!.

استيقظت " مريم " وقد تورمت عيناها من البكاء، شعرت بحرقة بهما ولاحظت احمرارًا، وضعت بعض الماء البارد في إناء واستخدمت بعض الضمادات القطنية في عمل كمادات لعينيها..

شعرت ببعض الراحة؛ ومن ثمَّ خرجت لتبدأ عملها، لكن رأسها مازال مشغولًا بكافة الأحداث، مضى الوقت سريعًا وإذا بممرضة تخبرها أن هناك فتاة تسأل عنها ولا تعرف هويتها، عقدت " مريم " حاجبيها وضاقت عيناها في آن واحد معربة عن دهشتها بمجيئ الزائرة، خرجت من الغرفة لتجد مفاجأة بانتظارها..

إنها شقيقتها الوحيدة " سلمى " بالسنة الثانية بكلية التجارة، وقد تمت خطبتها لابن خالها، على أن يتم الزواج بعد التخرج... أسرعت إليها تضمها وتقبلها في سعادة؛ ثمَّ نظرت إليها بحنو:

- مفاجأة رائعة حقًا!... كيف حالك؟.. وكيف حال والدي ووالدتي؟ كم افتقدكم!..

-لمعت الدموع في عينيها؛ ثم أجابتها بحزن:

نحن نفتقدك أيضًا ونتمنى عودتك، يكفي هذه المدة حبيبتي، أشعر بالوحدة بدونك، ووالدتك تبكي كثيرًا شوقا إليكِ، بينما يبدو الحزن

واضحًا على وجه أبي، عاهدتك قوية ولا يكسرك شئ، كفاكِ هروبًا، أنا بحاجة إلى وجودك، كما أن افتتاح أول معرض خاص بلوحاتي بعد ثلاثة أيام، واتمنى وجودك بجواري؛ فلا تحرمينني هذه الفرحة، خاصة بعد تشجيعك الدائم لي على هذه الخطوة.

كان ذلك؛ خبرًا تحتاج إليه "مريم " فعلًا؛ ليخرجها من محنتها.. أشرق وجهها وأنارت بسمتها المكان، فشقيقتها موهوبة حقًا، وتجيد الرسم منذ صغرها..

-مبارك عليكِ حبيبتي!.. خطوة رائعة، أعلم يقينًا أنكِ ستحققين نجاحًا كبيرًا، فلديكِ موهبة وخيال رائع، ومن المؤكد أنني سأحضر نجاحك في هذا اليوم بإذن الله!.

تناولا الغداء معًا بعد انتهاء عمل "مريم "، وتبادلا الحديث في أمور كثيرة، فرحة عارمة باجتماعهما سويًا منذ سفرها ورحيلها عن أسرتها.

حان وقت النوم بعد وقت ممتع، نامت " مريم " سريعًا بعد شعورها بالأمان بجوار شقيقتها، بينما مكثت " سلمى " تفكر في يومها المنشود، لم تعلم أنها في مكان يزهق الروح التي تخرج عن المسار، وتصبو إلى السعادة، واقتربت من تحقيق حلم جميل من أحلامها، ولكن رصدتها اللعنة ووقع عليها الاختيار، بدأت

الحمى تسري في جسدها، أنين محموم شعرت به شقيقتها؛ فنهضت وقد انتابها الفزع على حال " سلمى "، علمت أنها ستفقدها لا محالة!

أسرعت بملابس نومها؛ تجري خارج المكان بكل قوتها صوب منزل " رحيم "، تعثرت بإحدى الأحجار، وسقطت على الأرض، وإذا بها تنهض سريعًا وقد غمرتها الأتربة، بعد أن ارتوت بدموعها، وجدت نفسها أمام باب منزله، أخذت تضرب الباب بكل ما لديها من قوة وتصرخ:

افتح الباب!.... لا تقتلها!!!!!

شعر "رحيم " بأن هناك شئ ما يحدث خارج باب منزله، كان يجلس على مقعد بجوار النافذة وقد غمرته قوة كبيرة، وكأنه على اتصال وشيك بلعنته، كان يشعر أن هناك روحًا في طريقها إلى النهاية، لم يعلم أنها أعز الأرواح إلى " مريم "!..

فقد تركيزه لبرهة، وتوجه نحو الباب وفتحه؛ ليراها أمامه على هذه الحال، لتسقط على الأرض، وقد أمسكت قدمه اليمنى بكلتا يديها، كانت تصرخ متوسلة:

لا تقتلها!.. لا تقتلها!.. إنها شقيقتي الصغرى!.... استحلفكَ بالله لا تقتلها!!!!... ثمَّ فقدت الوعي!

كانت صدمة له رؤيتها هكذا، حملها بين ذراعيه ودخل بها؛ ثمَّ وضعها على الفراش بغرفته، ظلَّ ينظر إليها غير مصدق للحظات، يراقب أنفاسها تعلو وتهبط، مسح دموعها بيده، أخذ يمسح على شعرها وقد هدأت نفسه، مشاعر كثيرة تتقاذفه؛ بينما وقف " صخر " على مقربة منه؛ وكأنه يتابع ما يحدث في صدمة!!

نهض " رحيم " وأحضر من دولابه زجاجة من العطر الخاص به، ورش بعضها على أنامله ثمَّ قربها من أنفها، رائحته نفاذة وقوية... بدأت تحرك رأسها وتتمتم بصوت واهن.... " سلمى "!... " سلمى "؛ لا تموتي!.... لا تقتلها أرجوك!!

فتحت عيناها بصعوبة؛ لتراه ينظر إليها بصورة غير ما كانت تراه عليها مسبقًا، لأول مرة تراه وسيمًا وغير مخيفًا، نظراته لها عجيبة، بها ود غير مفهوم!!

حاولت التحدث إليه؛ فأشار إليها بالتوقف عن الكلام، ثمَّ بادر قائلًا:

شقيقتك بخير، اذهبي إليها!!

اتسعت عيناها غير مصدقة لكلماته؛ لكن هناك شعور جيد انتابها جعلها تهدأ وتثق به، رافقها حتى باب المنزل؛ ثمَّ فتح لها الباب،

فخرجت ثمَّ نظرت إليه طويلًا؛ ثم انصرفت مسرعة إلى المستشفى بخطوات تكاد تسابق الزمن، دلفت مسرعة داخل الغرفة، وأسرعت نحو شقيقتها..

كانت نائمة، أنفاسها منتظمة، وضعت يدها فوق جبينها تتلمس حرارتها؛ فوجدتها طبيعية، لم تصدق أنها مازالت على قيد الحياة، أخذت تقبلها وتبكي، استيقظت " سلمى " على ما تفعله شقيقتها معها؛ فنظرت إليها باندهاش:

- ماذا حدث؛ حبيبتي؟ لماذا تبكي؟!

نظرت إليها " مريم " مبتسمة:

- استيقظت فزعة أنكِ غادرتي بدون وداعي؛ فابتسمت " سلمى" وضمتها إليها؛ وهى لا تعلم أن شقيقتها أعادتها منذ قليل من أمام بوابة الموت، فالحب قد يصنع المعجزات حقًا!

غادرت "سلمى " بأمان على وعد بحضور " مريم " معرض اللوحات الخاص بها؛ بينما مكثت "مريم " مع نفسها لا تصدق ما حدث، هل ما حدث حقيقة فعلًا؛ أم أن الأمر برمته منذ حضور شقيقتها حلم، خيال محض!!!

الأمر يمر برأسها ويتم تكراره بدقة مرات ومرات؛ وكأنه يخبرها ويؤكد لها؛ أنه واقع!

وكما حدث معها حدث مع " رحيم "، فمازال مستيقظًا ولم تغمض عيناه، هل نجحت هذه الفتاة في كسر غضبه وحزنه وإرادته؟ هل ترك شقيقتها من أجلها ومن أجل دموعها؟

ماذا فعلت به منذ أن رآها؟

لماذا يشعر بهذا الوخز في قلبه؟

نهض فجأة مبتعدًا عن كل هذه الأسئلة برأسه؛ ثمَّ أحضر صورة زوجته وصورة ابنته وأخذ ينظر إليهما، وقد تملكه شعور بالذنب قاتل، أجهش بالبكاء فبللت دموعه صورهما، ظلَّ ينتحب لعجزه!

أراد أن ينفث عن هذا الشعور القاتل، أخذ يتجول بالمنزل، وقد انتابته ثورة عارمة، كاد يموت من نظرات زوجته وابنته له، أخذ يُلقِ بكل ما يراه حوله، زجاج المرآة لم يسلم منه فقد ضربه بكوب الشاى فكسره، شعر " صخر " أن صديقه في حالة لم يرَها من قبل فقبع أسفل مقعد مختفيًا مندسًا بعيدًا عن أنظاره.

ظلَّ " رحيم " على هذه الحالة؛ حتى استسلم للنوم، فقد كان ملاذًا ينشده ويهرب إليه!... بينما هربت " مريم " إلى عملها في محاولة فاشلة للنسيان ايضًا!.

الفصل السادس

أخذت " مريم " أجازة ثلاثة أيام للسفر إلى أسرتها، جهزت حقيبتها وسلمت على زملائها بالعمل، استقلت القطار وجلست بإحدى العربات تتعجب من نفسها وما تشعر به، كادت تهبط من القطار عندما بدأ بالتحرك؛ وكأنها لا تود المغادرة، شئ غامض يجذبها لهذا المكان القاتل، ازداد الأمر بعد مقابلة " رحيم " وإنقاذه شقيقتها، هناك سر متعلق به وما يحدث، وهناك لها ارتباط وثيق في وقف هذه اللعنة!

استقبلتها أسرتها بسعادة بالغة، امتلأ البيت بهجة بعودتها، قبلت رأس والدها ووالدتها، وتبادلت العناق مع " سلمى ".

دخلت غرفتها؛ لتنال قسطًا من الراحة حتى موعد الغداء، أخذت تجوب الغرفة، كل شئ كما تركته منذ غادرتها، رحلت عنها وعن كل ما يربطها بهذا المكان من ذكريات مؤلمة، إن الحزن حقًا يبدأ كبيرًا ثمَّ يخبو وينطفئ..

كان وقتًا جميلًا مفعمًا بالحب مع أسرتها؛ حتى موعد المعرض، حضر الأقارب والأصدقاء، وكان ملتقى فني ناجح... لوحات رائعة ومعبرة بريشة " سلمى "؛ والتي نالت إعجاب الحضور..

بينما تتفقد " مريم " اللوحات في سعادة إذا بيدٍ تلمس كتفها، نظرت وكانت مفاجأة صادمة لها على غير توقع؛ إنه " محمود"!

تغيرت ملامحها لرؤيته؛ رغم ابتسامته التي نظر بها إليها، ومشاعر الشوق بعينيه... مد يده إليها مصافحًا:

كيف حالك " مريم "!... لقد أخبرتني "سلمى " بأمر المعرض وذكرت لي حضورك!

صبرا "سلمى"!.. عندما انفرد بكِ على وضعي في هذا الموقف الحرج.... توعد همست به لنفسها؛ بينما مدت يدها وصافحته سريعًا؛ ثمَّ أفلتتها من يده؛ وأجابته بجفاء:

الحمد لله؛ بخير!... المكان الذي اقيم به أكثر من رائع..

-شعر "محمود " بحرج؛ وأنه غير مرغوب في حضوره، كان ذلك واضحًا له، فقد شعر بأن " مريم " لم تسعد برؤيته مطلقًا، وأن الأمور معها مازالت غير جيدة، وأن خطة " سلمى " لجمعهما معًا من جديد، قد باءت بالفشل منذ اللحظة الأولى!

تردد قليلًا؛ ثمَّ قرر حسم الأمر بالنهاية، وبادر بصوت بدا عليه التوتر:

- أريد التحدث معكِ بمفردنا في أى مكان ترغبين به!

كان هذا آخر ما ترغب به حقًا؛ فأجابته سريعًا: معذرةً؛ ليس لدي وقت، فأنا مستعدة للسفر بعد قليل سيحين موعد القطار ولن استطيع التأخر، فيجب العودة للعمل بالمستشفى غدًا في الصباح الباكر، ولقد انتهى ما بيننا من كلام بالسابق.

كان ذلك؛ كلامًا كفيلًا بإنهاء أى حوار، أدرك معه " محمود " أنه فقدها وإلى الأبد، فهمَّ بالانصراف دون التفوه بأى كلمة؛ بينما شعرت هى بنشوة ولذة الانتصار؛ فالأمر ما عاد مؤلمًا!

وتأكدت بداخلها؛ أنها مع بداية جديدة خالية من أى آثار للماضي، وأن مصيرها مرتبط وبقوة هناك؛ رغم واقعه المخيف!

استعدت للرحيل مودعة الأهل والأصحاب، وتنبأت لشقيقتها بنجاح فني باهر، ولم تنسَ معاتبتها على التواصل مع " محمود " وحضوره الذي ازعجها، وما كان من شقيقتها إلا الاعتذار لها؛ فقد كانت ترغب باتاحة فرصة أخيرة لهما معًا؛ ليس إلا!

وصلت "مريم " إلى حيث بدأت، تشعر أن هذا المكان هو موطنها الآن، حنين عجيب وكأنها غادرته لفترة طويلة، كانت مفعمة بالأمل في أمور جميلة وتغير مرتقب؛ لكن كان بانتظارها صدمة شديدة، فقد أسرعت تلقي التحية على زميلاتها بالعمل،

ولاحظت أن هناك أمرًا ما يخفونه، يبدو الحزن واضحًا عليهن جميعًا، سألت عن صديقتها وزميلتها المقربة والتي اخبرتها كل شئ بشأن تلك اللعنة، فما كان منهن إلا البكاء، لقد اختارتها اللعنة الغادرة؛ بينما أنتِ مسافرة!..

بللت دموعها وجنتيها، لقد خدعها ومازال مستمرًا في زهق أرواح الأبرياء، ولم يتوقف، أنقذ شقيقتها ليخدعها وتظن به الخير... ليلة عصيبة مرت بها كادت تطيح بكل ما بقلبها من تمسك بالحياة.. الحياة التي ودعها " رحيم " منذ وفاة ابنته وحلمها معها!

هو في أسوأ حالاته؛ صراع يمزقه بلا رحمة، بين ثأره وغضبه لوفاة " سجدة " وبين " ظهور " مريم " وما يشعر به نحوها، ولم يتمكن أبدًا من فهم هذا الشعور، وبين هذا وذاك ماتت روح أخرى تنشد حلمًا وأملًا بالحياة، ماتت روح عزيزة على " مريم "، أخبرتها أن اللعنة تختار البعض، وتترك البعض بدون سبب واضح!

شعرت " مريم " أن "رحيم " بحاجة إلى حب الحياة بعد فقدان ابنته، قد يكون هذا هو السبيل لوقف اللعنة وعودته لنفسه، بحاجة إلى رؤية الجمال في كل شئ حوله من جديد..

قررت زراعة حديقة منزله بالأزهار، وطلاء سور المنزل باللون الأخضر، وبالفعل أحضرت البذور والطلاء والأدوات التي ستحتاج إليها، وذهبت صباح اليوم التالي قبل عملها، نظفت الحديقة وزرعت البذور، ودهنت السور ثمَّ انصرفت..

حينما استيقظ " رحيم " ونظر من نافذة غرفته؛ فلاحظ لون السور وأخذته الدهشة، خرج مسرعًا إلى الحديقة يتبعه " صخر"، الذي شعر أن هناك أمرًا هامًا جدير بالمتابعة، كانت بحق مفاجأة له، تلك المظاهر المفعمة بالحياة التي ظهرت ملامحها بالحديقة، ما تمّ زراعته من بذور بعد تنظيف التربة وريها بالماء، طلاء السور باللون الأخضر المفعم بالحياة، عاد بذاكرته إلى انتقاله لهذا البيت بعد زواجه، وكم كانت سعادة زوجته بجمال وبهاء الحديقة، كانت تهتم بها معه، يتناولا الإفطار بها ويشربا الشاي فيها سويًا..

ظلَّ سؤالًا واحدًا يطوف بخلده؛ مَن فعل هذا؟ وبجانب السؤال يرى صورتها تجيبه عن ضالته؛ إنها " مريم "!

كلما هدأت نفس " رحيم " كلما هدأت اللعنة وخمدت جذوتها، وسارت الأحلام في مسارها بدون استهداف لها، وهذا ما شعرت به " مريم "، وأكد لها نجاح خطتها.

نجحت في الحصول على رقم هاتفه الأرضي، واتصلت به من هاتف المستشفى، وعندما سمعت صوته، لم تجبه وظلت تسمع صوته ثمَّ اغلقت الهاتف، كان هذا هو الاتصال الأول على هاتفه منذ وفاة ابنته، شعر بحيرة من ذلك الفعل، وما يحدث من أمور غريبة، لقد أصبح ذهنه مشغولًا للغاية، وغاب عنه هدفه الذي يحيا من أجله وهو الانتقام، وقع فريسة لطيف "مريم " الذي يطارده بلا توقف، وشعر أنها وراء كل ما هو جميل حوله، لقد نجحت في اختراقه، بينما قررت هى أن تسير على مقربة من منزله، في خطوة هجومية منها بعد انتهاء العمل..

شعر " رحيم " بآلام شديدة تسري بكافة جسده، وظلَّ راقدًا في فراشه على غير عادته، شعر به " صخر " لفراسته وقربه منه، قفز بالقرب منه وظلَّ يداعبه ويلعق قدميه وأصابع يده، في محاولة منه أن يواسيه، بينما يئن هو من الألم..

يبدو أنه كان يستمد قوته من هذه اللعنة، وكلما هدأت أصابه الوهن والتعب، تركه "صخر " وأسرع خارج البيت في محاولة لإنقاذ صاحبه، وكانت المفاجأة عثوره على " مريم " بالقرب من الحديقة، فانتابها الفزع وأرادت الهرب؛ فإذا به يُعطيها الأمان ويطلق صوتًا ضعيفًا ويدور حولها، ثمَّ ينظر إلى باب البيت، وكأنه يرسل لها إشارات خاصة، شعرت منها أنه يدعوها للدخول، فسارت أمامه بحذر، ثمَّ دخلت المنزل وهو وراءها، فأسرع نحو غرفة " رحيم " وهى تتبعه؛ لتجده بالفراش مغمضًا

عينيه وقد تعرق جبينه، فأسرعت نحوه تتفحصه، شعر بيدها فوق جبينه؛ فنظر إليها بوهن، فطمأنته، وأخبرته أن " صخر " أحضرها لتراه بينما كانت تسير بالقرب من منزله، وأن حرارته مرتفعة قليلًا، يحتاج لعمل كمادات باردة، أسرعت خارج الغرفة، وبحثت عن المطبخ ثمَّ أحضرت إناء وضعت به بعض الماء البارد، وأخذت فوطة نظيفة ثمَّ أسرعت إلى غرفته، مكثت بجواره تضع له الكمادات، وتغيرها بين الحين والحين؛ حتى انخفضت وتحسن لون بشرته، وابتسم لأول مرة في غير حضرة الموت؛ ثمَّ أمسك بيدها ونظر إليها وقد لمعت عيناه:

-أشكرك بشدة دكتورة!

توردت وجنتاها خجلًا، وسحبت يدها بلطف؛ ثمَّ أومأت برأسها ؛ وأجابت بصوت مضطرب:

عفوًا ..هذا واجبي، ولم أفعل شيئًا يذكر!

اسمي دكتورة / مريم!.. سأذهب إلى المستشفى الآن، وأحضر لكَ علبة أقراص من الضروري أن تأخذ منها قرص مرتين يوميًا؛ حتى تشفى تمامًا، لم ارغب في الذهاب إلا بعد انخفاض حرارتك؛ لكن سأعود سريعًا؛ لا تقلق!

- أحضريها صباحًا، لا أريد اتعابك أكثر من ذلك!

- أجابت بحنو: المكان ليس بعيدًا من هنا، ولابد من أخذ قرص الآن قبل نومك، وآخر فور استيقاظك!

-خذي " صخر " معكِ؛ فالوقت قد تأخر!

انصرفت " مريم " بصحبة القط العجيب هذا، وأحضرت علبة الدواء وعبوتين من العصير، ثمَّ عادت سريعًا إليه وقد غمرتها السعادة؛ فقد حالفها الحظ في التقرب إليه، بدون ترتيب مسبق!

طلبت منه تناول قرص من الدواء، وشرب عبوة من العصير مع الراحة؛ ثمَّ انصرفت بصحبة " صخر " الذي أصبح مرافقا لها!

الفصل السابع

شعور غريب ينمو بداخل " رحيم " منذ ظهور " مريم " بحياته، ما عادت الأمور كسابقتها، هناك أثر واضح ونظرة ومذاق مختلف للأمور، ألوان مبهجة تمَّت إضافتها لحياته بعدما صبغ اللون الأسود كل شئ منذ وفاة ابنته..

واتته الرغبة؛ فأصبح يريد أن يتحدث ويقص كل ما بداخله، ربما تهدأ نفسه وترحل لعنته، وأن يحل الأمل بدلًا من الألم، ثلاثة أحرف؛ لكن شتان بينهم إذا تمَّ إعادة ترتيبهم!

مكث يفكر ويتحدث مع نفسه بصوت مرتفع؛ جذب انتباه " صخر" فاقترب وجلس بجواره، ينصت إليه..

- أرغب في أن أحكي ما لدي منذ أن قابلت زوجتي " نعمة "، أود أن يشاركني الناس ما أشعر به منذ فقدتها؛ ثمَّ فقدي ابنتي الوحيدة " سجدة "، لقد سئمت وتعبت من الصمت وما عدت اتحمل، أريد ترجمة هذا إلى عمل يشاهده الناس ويتفاعلون معه؛ ليتني استطيع أن اتحدث إلى " مريم "!

لن استطيع؛ فالأمر صعب ومؤلم ويحتاج الكثير من الشجاعة والجرأة..

لماذا لا اتحدث إلى صديقي " كامل " واتشاور معه، فقد يساعدني في هذا!

لقد حاول " كامل " معي جاهدًا في بداية محنتي، ورغب في أن يكون بجواري، ودائمًا ما كان يحضر لزيارتي، ويحاول إقناعي بأن ننتنزه معًا كما كنا نفعل؛ لكن قاومته وقابلت كل محاولاته بالصد والرفض، كان رفيق عمري منذ الطفولة وفي كل مراحل الدراسة؛ حتى فرقنا اختيار مجال العمل في الدراسة؛ فقد اختار مجال المحاماة الذي يحبه بشدة، بينما أكملت أنا في العمل بمجال الحسابات بإحدى البنوك، ثمَّ أخذت أجازة بدون مرتب بعد وفاة ابنتي، وآثرت العزلة!

نهض " رحيم " وأسرع إلى الهاتف واتصل بصديقه، الذي شعر بدهشة بالغة أنه تذكره ويرغب في رؤيته، اتفقا على حضور " كامل " عنده بالبيت بعد انتهاء عمله في الخامسة..

اطمئن " رحيم " وهدأت نفسه، وشعر أنه تصرف بصورة صائبة؛ لابد له وأن يخرج عن صمته، قد يكون هناك سبيل لشفائه من هذا الشقاء، ما كانت طبيعته القسوة؛ بل كان له نصيب من اسمه في الرحمة وحب الغير، يرغب في العودة إلى نفسه القديمة هذه، بدأ يرتب البيت على غير عادته منذ الوفاة، أشعل بخورًا وجلس يستمع إلى المذياع؛ بينما واصلت " مريم " عملها وقد غمرتها روح التفاؤل فى أن القادم سيكون أجمل، وأنها قادرة على تغيير " رحيم " وانتشاله من الألم القاتل الذي يدمره ويدمر كل مَن يحيط به، لابد من مواصلة اقترابها منه ومعرفة طبيعة

هذه اللعنة وسببها، وكيفية مواجهتها؛ ومن ثمَّ القضاء عليها من وإلى الأبد!.

استقبل "رحيم " صديقه وقد ظهرت عليه السعادة، وقد تبادلا عناقًا طويلًا مفعمًا بالود والاشتياق، بدا " كامل " أنيقًا كعادته، يحب ارتداء بذلة كاملة، يضع عطرًا فواحًا، جلسا معًا وتجاذبا أطراف الحديث، وتناولا كوبين من الشاى أعدهما " رحيم "؛ ثمَّ بدأ يخبره بما يدور في نفسه ورغبته في أن يحكي كل ما مر به، منذ حبه لزوجته وحتى الآن؛ ليتم كتابته في صورة سيناريو عمل فنى يراه الآخرين، ويشعرون بما أصبح يحوي فؤاده من مشاعر سعادة وألم، فقد يخفف عنه ذلك ويخرجه من عزلته..

كان لوقع كلماته أثر طيب على نفس " كامل "، الذي ابتسم لما يحدث مع صديقه من تغيرات إيجابية؛ وأجابه بصوت مفعم بالود:

هذه أخبار جميلة جدًا؛ صديقي الحبيب!.. ولحسن الحظ أنا لدي موكلًا، له قضايا عندي بالمكتب، يعمل ككاتب سيناريو وله علاقات بالوسط الفني، سأرتب معه موعدًا، وبإذن الله سنذهب معًا إليه في القريب العاجل؛ فلا تقلق، واتمنى أيضًا أن تفكر في استئناف عملك وقطع الأجازة، سيكون هذا أمرًا رائعًا!

تنهد " رحيم " طويلًا؛ ثمَّ أردف قائلًا:

لنرى ما سيجري بشأن موضوع كتابة السيناريو أولًا؛ ثمَّ يتبعه مسألة العودة للعمل مرة أخرى بمشيئة الله تعالى!

انصرف "كامل " وترك "رحيم " يجلس بالحديقة يستنشق نسمات الهواء، وينظر إلى السور والطلاء الأخضر الذي دهنته "مريم " وهذه الزهور الجميلة التي زرعتها، وبدأت تعلن عن قدومها بقوة إلى الحياة..

ارتسمت ابتسامة على شفتيه مع تذكرها، وتمنى لو رآها وتحدث إليها؛ بينما كانت هى أيضًا على موعد معه؛ حيث جلست بعد العمل في غرفتها وقد أصابها الأرق من كثرة التفكير، أمسكت بقصة وجاهدت نفسها في قرائتها؛ ولكن باءت كل محاولاتها بالفشل، عجزت عن التركيز بأحداثها، وأعادت القراءة مرات ومرات ثمَّ آثرت النوم..

ظلَّ يرمقها بنظراته؛ حتى دلفت داخل غرفة الطوارئ، إنه زميلها دكتور/ منصور، هادئ ووسيم، له ابتسامة ساحرة، كثيرًا ما تشعر أنها لها وحدها، يراقبها في صمت وخجل، ويبدو أنه قرر الخروج عن كل هذا، فقد استوقفها لأول مرة بعد خروجها من الغرفة..

- أهلًا دكتورة " مريم "!.. كيف حالك ؟

احمرت وجنتاها خجلًا، وتسارعت نبضات قلبها من حديثه معها؛ وأجابت بصوت مرتجف:

أهلًا بحضرتكَ؛ دكتور/ منصور!

أنا بخير؛ الحمد لله!

- ترددت كثيرًا في التحدث معكِ؛ لكن بعد تأكدي عدم ارتباطك حاليًا من زميلاتك، قررت أخذ خطوة للأمام وطلب الخروج والتحدث معكِ في أى مكان عام تختارينه!

صمتت لبرهة بلا إجابة؛ لا تصدق ما يحدث، وعقلها مشوش للغاية؛ فهل توافق أم ترفض هذا العرض؟!!.. ونهاية الأمر أجابته بصورة مقتضبة:

ليس عندي مانع!

لمعت عيناه السوداء لقبولها طلبه، وأكمل قائلًا: ما رأيك إذا تقابلنا في السادسة في الحديقة المجاورة؟!

- موافقة؛ سأحضر إن شاء الله!

استأنفت "مريم " عملها؛ مشغولة الذهن، لا تعلم ماذا تقول له حينما تقابله، فقد شعرت بحرج من رفض دعوته لها، ليست مستعدة للتورط في أى علاقة الآن، مشاعرها مشتتة، وذهنها غير صافٍ..

انجذابها نحو " رحيم " الغير واضح، كلها أمور تجعلها بمنأى عن أى تجارب جديدة، ليس أمامها غير مقابلته والاستماع لما سيقوله، ثمَّ منح نفسها فرصة تقرر ما قد ترغب به بالفعل، استمرت في عملها؛ بينما دقَّ جرس الهاتف بمنزل " رحيم "؛ ليجد المتصل صديقه " كامل " يخبره أنه قد تحدث مع السيناريست الذي أخبره عنه، وتمَّ ترتيب اللقاء معه في الغد تحديدًا بعد الظهر لارتباطه بمواعيد أخرى، شعر " رحيم " بارتياح لما تسير نحوه الأمور، وجلس يشاهد التلفاز لأول مرة منذ فترة ويهتم برؤية ما يحدث حوله من أخبار، أسرع " صخر " وجلس على مقربة منه وأخذ يشاهد معه ما يدور في هذا الصندوق الكبير، أصوات وصور وحركة، وقد يرى ما يشبهه من قطط أخرى تتحرك هنا وهناك، ولكن لا يستطيع الدخول إليها، ظلَّ يدور حول الجهاز، يبحث عن مكان أو فجوة يتطرق إليه من خلالها؛ بينما ظلَّ " رحيم " ينظر إليه ويراقبه ويضحك على عجزه وعدم فهمه هذا!

بدأت "مريم " تستعد وتجهز لموعدها، ارتدت فستانًا قصيرًا امتزج به اللونين الأبيض والأسود بصورة رائعة، ووضعت

عطرًا برائحة الياسمين الجذابة، وتركت شعرها منسدلًا على كتفيها، واستبدلت حذاء العمل ذو الكعب المنخفض والأكثر عملية، والذي كان يشبه الأحذية الرياضية كثيرًا؛ بآخر لونه أسود لامع وله كعب مرتفع، يبرز أنوثتها وأناقتها، مع حقيبة أنيقة تشبه الحذاء في لونه ولمعته، ثمَّ انصرفت صوب الحديقة، لمحت " منصور " وقد جلس على مقعد قريب من باب الحديقة لتسهل عليها رؤيته، نهض مبتسمًا وهو يرمقها بنظرات الإعجاب من بعيد، بدت متألقة ومشرقة للغاية، مدَّ يده وصافحها بحرارة أخجلتها..

-أى مشروب تفضلين؟!

- عصير الليمون!

طلب لهما نفس النوع من العصير؛ ثمَّ أطال النظر إلى عينيها مما دفعها إلى الإيماء برأسها لأسفل؛ فبادر قائلًا:

- حقيقةً أنا أرغب في الزواج، لدي شقة خاصة بي امتلكها في بيت أسرتي، وسأكون سعيدًا للغاية إذا وافقتي أن تكملي معيَّ طريقي في الحياة لنكون أسرة واحدة!

أمسكت كوب الليمون بيدٍ مرتعشة؛ ثمَّ شربت منه قليلًا؛ ليساعدها على الهدوء والتريث قليلًا!... تحدثت وقد حاولت إبعاد نظرها عنه باتجاه آخر؛ ويكأنها تُحدث شخصًا آخر:

-أنتَ بصدق؛ إنسان أكثر من رائع، ومشهود لكَ من الجميع بالبراعة والالتزام والخلق، ويجدر بي الذكر أنني قد كنت على وشك الزواج من زميل دراسة لي بكلية الطب أيضًا؛ لكن أنهيت كل شئ قبل موعد الزفاف بقليل، ولا أريد التسرع في الارتباط حاليًا، أريد زمنًا مع نفسي، أحسم فيه كل شئ، ولا أريد أن أرغمك على انتظار ما ليس مضمونًا؛ فأنت تستحق من هي أفضل بكثير!

أدرك سريعًا أنها ترفض طلبه بصورة راقية، واحترم هذا فيها، وتمنى لها السعادة، وأكد لها على حق الزمالة والصداقة، إذا شعرت بالحاجة إلى أى شئ وفي أي وقت...

كانت كلماته الراقية مصدر راحة وسعادة لها، فقد رفع عنها الحرج والتوتر بصورة رائعة، مما ساعد على بقاء الاحترام بينهما، عادت إلى غرفتها وقد غمرتها قوة عجيبة بعد هذا الموقف، شعرت أنها تسير في خطوات ثابتة وتعرف ما تريد حقًا، ولا تشعر البتة بالخوف مما هو قادم، وأنها الآن قادرة على تحمل نتائج كل ما تختاره بغير ندم، استسلمت للنوم سريعًا وقد هدأت نفسها، بينما مكث " رحيم " يلهو مع " صخر " بعد فترة طويلة غاب عنها المرح...

حضر " كامل " في الظهيرة؛ لاصطحابه معه لمقابلة السيناريست، فوجده بانتظاره وانصرفا معًا؛ حتى وصلا مكتبه فوجداه بالانتظار، قدمه إلى " رحيم ":

إنه " السيناريست " حسين فؤاد "، ساد الترحاب؛ تبادلا السلام وصافح كلا منهما الآخر، ثمَّ طلب السيناريست؛ أن يسمع من " رحيم " تحديدًا ما يود كتابته بصورة عامة، بدأ " رحيم " يقص له ما يود كتابته بصورة مجملة، على أن تكون أكثر تفصيلًا عند الكتابة، استمع له كاتب السيناريو؛ ثمَّ أجابه بعد الانتهاء :

جميل جدًا!.. لكن لابد من إضفاء لمسة إثارة بالموضوع؛ ليكون عامل جذب، مثل اعتبار خيانة الزوجة وليس وفاتها مثلًا، ليكون الألم أوقع!

ما أن نطق بهذه الكلمات التي أصابت قلبه كالطلقات النارية؛ حتى انتفض واقفًا وكسا وجهه السواد والتهكم، وكاد أن يفتك به لولا تدخل " كامل " صديقه، الذي أنقذ " حسين " من يده وأخبره أنه لا يقصد ولا يعرف أن الأحداث تجربة حقيقية خاصة بك، ثمَّ اخرجه من مكتبه بصعوبة، وهو يصيح بصوت غاضب:

لن أكتب شيئًا!.. اللعنة عليكم جميعًا!

الفصل الثامن

عاد " رحيم " إلى بيته في حال سيئ للغاية، غضب عارم يهز كيانه ودواخله، لا يصدق ما سمعه من هذا المعتوه، كاد يفتك به كالأسد الجائع لولا تدخل صديقه، ظلَّ يلوم نفسه على ما فكر به وما آل إليه الأمر من إهانة لزوجته لا غفران لها، أسرع إلى غرفته وأخرج صورتها وصورة ابنته وظلَّ ينظر إليهما ويبكي وينتحب بشدة؛ بينما ظلَّ " صخر " يمسح برأسه وجسده في قدميه؛ مواساة له ولحاله الذي آل إليه..

عاش المكان أسوأ كوابيسه بعد هذا الأمر؛ فقد دفع فاتورة باهظة ثمنًا لهذا الموقف؛ حيث تجاوزت حالات الوفاة باللعنة المحمومة، ما قد بلغ خمس حالات في ثلاثة أيام متتالية، في حين أن " رحيم " لم يغادر منزله؛ فقد عاد إلى عزلته وسخطه القديم..

شعرت "مريم "؛ بأن هناك أمرًا سيئًا وراء ما يحدث بعد فترة هدوء واستقرار، قررت الذهاب لرؤيته والتحدث معه..

مكثت أمام باب المنزل فترة طويلة، بدون أن يفتح لها " رحيم "، فشعرت بالقلق الشديد عليه، أخذت تدور حول المنزل، في محاولة منها لرؤية أى ضوء أو حركة؛ ولكن كان كل هذا؛ بلا فائدة...

ظلام دامس يحيط بداخل المكان وخارجه، تملكها اليأس واعتصر الحزن قلبها؛ ومن ثمَّ عادت إلى غرفتها وقد أدركت أن أمورًا سيئة تلوح في الأفق، وبدأت تؤتي ثمارها المسمومة؛ لتجلب الخراب وليعود الموت وليخيم من جديد على هذه البلدة..

سكون مميت يحيط المكان؛ وفجأة!... الهاتف يدق، بينما ينصت إليه " رحيم " بعدم اكتراث، ظلت الدقات تتوقف وتعود مرة أخرى، في إلحاح قوي؛ أجاب المتصل بالنهاية ... إنه صوت نسائي رقيق غير معروف بالنسبة له!

- مساء الخير أستاذ " رحيم "!
- معكَ " شيرين "؛ كاتبة سيناريو!

أجابها بامتعاض وبصوت به غصة:

- مساء الخير!

- تواصل معي زميلي "حسين فؤاد " وأخبرني بحزن شديد على ما حدث بينكما من سوء فهم لم يقصده، وجعلني اتواصل مع صديقك السيد " كامل " وأخذت منه رقمك؛ فأنا سأقوم بالمتابعة مع حضرتك لكتابة كل ما تريد بالصورة التي ترغب بها ويسعدني ذلك، فقد أعجبني النص للغاية، واستشعر بأنه سيكون حتمًا عملًا مميزًا للغاية، وكم اتمنى أن تقبل العمل معيَّ، وتنسى ما حدث وصدر من الأستاذ " حسين "..

كانت تتحدث بأسلوب بالغ الرقة، ما جعل مهمة " رحيم " في رفض عرضها بالغة الصعوبة؛ ورغم ما يشعر به من ألم، أجابها بصوت هادئ وأقل حدة عن السابق:

- نعم!... أوافق على العمل معكِ!

بادرته سريعًا، سأحضر إليكَ في بيتك، فليس لدي مشكلة في هذا، وسيكون معيَّ الأوراق وجهاز التسجيل وكل ما نحتاج إليه؛ فهل يناسبك غدًا في تمام الساعة السادسة مساءًا؟

- أهلًا ومرحبًا بكِ؛ ليس لدي مانع، سأكون في انتظاركِ!

أغلق الهاتف معها واتته الرغبة في عمل شئ جديد، فقد عزم على التنفيذ بدون تفكير؛ خوفًا من أن يعاوده الألم والحزن ومن ثمَّ يتراجع، فقد أسرع إلى الحمام وأخذ حمامًا واغتسل، ثمَّ حلق ذقنه لأول مرة منذ وفاة ابنته، وارتدى ملابسه؛ ثمَّ غادر منزله متجهًا صوب المستشفى.

مفاجأة غير متوقعة لمريم؛ عندما أخبرتها الممرضة أن هناك مَن يرغب في مقابلتها ولم يذكر اسمه، دلفت خارج الغرفة لترى " رحيم " أمامها بهذه الهيئة الجذابة مبتسمًا لها، اتسعت عيناها وظلت تنظر إليه وقد ظهر عليها ما لم تبوح به؛ لكن لغة العيون هى أقوى لغة قادرة على التحدث بما في أغوار نفس صاحبها!..

ابتسمت له في خجل؛ قائلة:

أهلًا ومرحبًا بحضرتك!.. كم أنها مفاجأة سارة!

- أهلا بكِ؛ دكتورة!... واعتذر عن حضوري بدون موعد مسبق، أرغب في التحدث إليكِ؛ بالطبع إذا سمحت ظروف عملك، فأنا لا أرغب في أن يتسبب حضوري في أى مشكلة لكِ!

أجابته بصوت يفيض عذوبة:

لا إطلاقًا؛ لا يوجد أى مشكلة!.. سأخبر زميلة لي تتابع الكشف على الحالات بدلًا عني، وأنا سأذهب معكَ!

انصرفا سويًا؛ وجلسا في نادي على مقربة من المشفى، يحتسيا فنجانين من القهوة، وقد أخبرها " رحيم " بكل ما حدث، وصولًا إلى محادثة " شيرين " له، بدا الانزعاج واضحًا على ملامح " مريم " بعد ذكرها ورؤية اهتمامها بالأمر؛ لكن حاولت إخفاء هذا رغم ملاحظة " رحيم " له، وسعادته به..

- إنه حقًا لأمرٍ جيد؛ وكم اتمنى لكَ التوفيق، وإن شاء الله سيحقق هذا العمل نجاحًا ومتابعة كبيرة، وأرجو معرفة مجرى الأمور على الدوام؛ بالطبع إذا لم يضايقكِ هذا؛ أجابته على استحياء، معبرة عن موافقتها ورغبتها في ذلك..

ابتسم لها مشجعًا؛ ثمَّ تابع:

أخبرتكِ سريعًا بكل ما حدث معيَّ في الفترة الماضية، وسيصلك كل جديد عني، واتمنى أن تنصحينني وتخبرينني بأى ملاحظة أو اقتراح!

أومأت برأسها بالموافقة في سعادة؛ لشعورها بالقرب منه؛ واهتمامه بها..

كان وقتًا ممتعًا؛ شعرا كلاهما بأنهما صارا كيانًا واحدًا، وأن الأمر بينهما ليس مجرد صداقة؛ ولكنه صار أكبر من ذلك، أوصلها إلى المشفى؛ ثمَّ انصرف عائدًا في طريق إلى منزله، وما أن وصل اتصل بصديقه " كامل " وأخبره بتواصل " شيرين " معه، وقد شكره كثيرًا على اهتمامه؛ ثمَّ أبدل ملابسه ووضع طعامًا لصخر؛ ومن ثمَّ أحضر مجموعة من الأوراق، وأخذ يكتب ويدون بعض العناصر؛ لما سيحكيه في مقابلة الغد مع " شيرين " لتبدو أفكاره منظمة؛ فهو لا يرغب على الإطلاق في حدوث صدام آخر، بينما جلست " مريم " في غرفتها، تستمع إلى بعض الموسيقى بالمذياع، وقد طار قلبها مع تذكر لقاءها مع " رحيم "!

أخذت تحدث نفسها، تواجهها بحقيقتها، فمشاعرها نحوه؛ ليست شفقة ولا صداقة، ظهر هذا واضحًا عندما ذكر اسم المدعوة " شيرين "، وكم شعرت بالضيق من ظهورها رغم أنها لا تعلم

عنها شيئًا؛ إنها تلك نيران الغيرة التي أحرقت فؤادها، وبدأت تتساءل؛ هل هناك حياة من الممكن أن تجمعهما سويًا بعد كل ما حدث له وصدر عنه من جرائم؟ هل بإمكانها مساعدته للخلاص من هذه اللعنة؟ لابد أن تعرف كل ما حدث له بالتفصيل لتفهم كيف ستتمكن من مساعدته في التخلص منها، هناك حلقة مفقودة في هذه اللعنة وكيفية اختيارها لضحاياها!

الأمر ليس عشوائيًا على الإطلاق، هناك شيئًا مشتركًا بين كل الضحايا ولابد من معرفته، كادت تفقد عقلها من كثرة الأسئلة التي تعجز عن إجابتها؛ حتى غلبها النوم!.

دق جرس المنزل، إذا بسيدة جميلة أنيقة ترتدي فستانًا أحمر متوهج اللون، بدون أكمام، قصير نوعًا ما، يجسد مفاتنها بصورة واضحة، ممشوقة القوام، شعرها أسود قصير، ناعم ومنسدل غير متموج، بيضاء البشرة، تشبه مشاهير السينما العالمية، لها جاذبية شديدة، وابتسامة ساحرة لا تغيب عن وجهها البشوش..

استقبلها " رحيم " بحفاوة، أخذت تجوب بنظرها داخل البيت، أبدت إعجابًا بذوق الأثاث الراقي؛ ثمَّ جلست في مواجهة مقعد " رحيم "، نهض من مقعده؛ ثمَّ أحضر إليها كأسًا به عصير المانجو وكوبًا من الماء البارد، فوجدها قد أخرجت بعض الأوراق الفارغة وقلم وجهاز تسجيل صغير، وقامت بوضعهم على المنضدة أمامها..

- أنا مدام " شيرين لطفي " كاتبة سيناريو، متزوجة من رجل أعمال، كتبت العديد من سيناريو أعمال عديدة ناجحة، وأحب عملي جدًا وأبذل قصارى جهدي، وليس لدي أولاد، زوجي مشغول على الدوام؛ لهذا أركز بصورة كبيرة في الكتابة وأعطيها النصيب الأكبر في حياتي!

كلمات مفعمة بالثقة؛ بصوت عذب له صدى رائع على النفس، ابتسم " رحيم " إعجابًا بكلماتها وأسلوبها في الحوار وشعر بالتفاؤل..

- إنه لأمرٍ يستحق الاحترام؛ بالتأكيد سيدتي!.. وأنا تحت أمرك من الآن؛ ليظهر عملًا مميزًا جدير بالمتابعة عرفانًا لأبطاله، ولنترك اسم العمل حاليًا؛ فمازلت في حيرة من أمري في مسألة اختياره!

-رائع جدًا؛ سيد " رحيم "!..

كلمات تفوهت بها؛ بينما تحركت وجلست بجوار " رحيم "، الذي شعر ببعض الارتباك جراء تصرفها المتبجح هذا؛ لكنه سرعان ما أحسن الظن بها لرغبتها بالتسجيل مع الكتابة، وهذا يلزم معه وضوح للصوت وقربه، رغم نظرات الإعجاب التي ظهرت

وبدت بعينيها، فقد كانت تتمتع بعينين واسعتين كعيون القطط، مزيج بين الأخضر والأصفر..

وعندما نظرت لي، وأنا أحادثها؛ عادت بي الذاكرة كثيرًا حيث " نعمة" زوجتي الحبيبة!

- عندما أنظر إليكِ حبيبتي!.. أرى نفسي وسعادتي معكِ، أرى العالم أكثر جمالًا، كل الأشياء أراها رائعة للغاية، أراها بعينيكِ، وكأنها صارت لي وطنًا أعشقه بكل ما يحتويه، يالها من عينين !

استيقظت من حلمي الجميل الذي سافرت إليه على صوت " شيرين "؛ وقد لاحظت شرودي، وأنا أنظر إليها:

- أستاذ " رحيم "!.. هل نبدا العمل؟!

- نعم!... أنا مع حضرتك!

ضحكت بصوت عالٍ؛ آثار دهشتي؛ قائلة:

- هل سنظل نتحدث بالألقاب على هذا النحو؟... أستاذ وحضرتك، إلخ...؟!

بيننا عمل لبعض الوقت، ولكنني اتمنى أن نتعامل كأصدقاء؛ ليكون هناك مرونة أكثر في التعامل!

- بالطبع " شيرين "!... أردف متابعًا بعد هذه العبارة، وقد ظهر عليه الحزن، فقد أخذ يحكي ويروي لها عن حياته منذ طفولته، وكم كانت أسرته هى كل ما لديه بالحياة، والده ووالدته التي تعلم منها الكثير من الخصال الجميلة؛ خاصة الرحمة، فوالدته هى من اختارت له اسمه، ثمَّ تابع عن احترامه لوالده، فقد تعلم منه الالتزام بالوعود، فلم يخلف معه قط في تنفيذ أي أمر منذ أن كان طفلًا، وقد أحببت شقيقتاى كثيرًا؛ " فاطمة " و" أمينة "، وأصبحتا بمثابة ابنتاي!

تابعت "شيرين " حديثه باهتمام وتأثر، تدون ما يقول وتسجل أيضًا؛ ثمَّ قاطعته للتوقف، ثمَّ المتابعة بعد الانتهاء من كتابة هذا الجزء بصورته النهائية وعرضه عليه، وشكرته على حسن ضيافته.. على وعد بالحضور بعد يومين في نفس الموعد لمواصلة العمل..

أوصلها حتى خرجت من البيت؛ ثمَّ عاد وهو يفكر في هذه المرأة العجيبة ونظراتها إليهح وهل سينجح العمل معها أم سيتوقف ويعود لنقطة الصفر؟!

هناك قلق يؤرقه كونها امرأة، والمرأة بالنسبة له لغز صعب الحل، مستحيل معرفة كل ما بداخلها مهما حاولت، أو اقتربت، سهلة وصعبة في آن واحد!!!

حتى " نعمة " كان يشعر أحيانًا؛ أنه لا يعرف ما بداخلها، وهل سعادتها مكتملة أم ناقصة!... هكذا النساء؛ علامات استفهام دومًا وتعجب أحيانًا، وإذا بنفسه تأخذه إلى المرأة التي بحاجة إليها حقًا؛ إنها الطبيبة " مريم "!

دائمًا ما يأخذه كل شئ نحوها بصورة غير إرادية، يجدها أمامه في كل شئ جميل أو فكرة أو خاطرة؛ لابد وأن يعود إليها كالطفل يعود إلى أمه، إلى بيته، إلى وطنه.

لم يكن ليعرف أو ليدرك أنها مثله، حالها من حاله، تفكر به في ذات الوقت، تنظر من نافذة غرفتها إلي السماء، تبوح لها بما يؤرق نومها، لم تشعر بما تنتفض له نفسها من قبل، لم تشعر به مع " محمود " رغم سنوات ارتباطهما ببعضيهما البعض..

شعر " رحيم " بعد حديثه مع " شيرين " بالرغبة في زيارة أسرته، كان عازفًا عن صلتهم، مجرد اتصال هاتفي على فترات متباعدة، لم يحضر زواج شقيقته " فاطمة "، ولم يدخل البيت

إلا عند وفاة والده منذ خمسة أشهر، وغادر بعد دفنه مباشرةً، هناك رغبة عارمة في رؤية والدته، والبكاء تحت قدميها، أغمض عينيه وقد اتخذ قرارًا بزيارتها هي وشقيقته " أمينة " فور استيقاظه، وقبل الانخراط في العمل مع " شيرين " وانشغاله بعض الوقت، شعر بالسكينة تسري بداخله منذ فترة؛ لحنينه إلى أمه، أغمض عيناه وقد بللت الدموع وجهه، لقد عاد إنسانًا من جديد، فما كان يتمكن من التعرف على نفسه منذ وفاة ابنته..

استيقظ " رحيم " على صوت فرامل قوية لإحدى السيارات؛ وكأنها صدمت شيئًا ما، شعر بوخزة شديدة بقلبه، أسرع إلى النافذة، هاله ما رأى؛ وكأنه تم طعنه بخنجر في قلبه!..

كان " صخر " ممدًا أمام المنزل غارقًا في دمائه، وقد صدمته إحدى السيارات!.

الفصل التاسع

صرخة مكلومة هذه المرة دوت في كل مكان؛ إنه الألم يعتصر الفؤاد مجددًا، يا له من شعور سيئ للغاية!

كادت قدماه لا تقويان على حمله، ظلَّ يجري ويتخبط كمَن أصابه مس، كاد يسقط أكثر من مرة؛ حتى وصل إلى " صخر "، كاد أن لا يراه من غزارة الدموع، جلس على التراب وحمله بين يديه والدماء تسيل منه، وقد أغمض عيناه إلى الأبد، فلن ينظر إلى " رحيم " مجددًا، كانت عيناه تلمع فرحًا لفرحه، وتفيض دمعًا لحزنه، كان بحق صديقه الوفي!

مكث " رحيم " ينظر إليه، يخبط رأسه بكلتا يديه، يأخذ التراب ويهيله فوق جسده، يصرخ بقوة، أخذ يتذكر كل ما كانا يفعلاه معًا، يراه رأي العين أمامه، يقفز ويلهو معه، يدور بين قدميه، يجلس بجواره صامتًا عند غضبه، أو مختبئًا أسفل المقعد عند ثورته، أو نائمًا بالقرب منه عند مرضه..

أخذ يحادثه بصوت مرتجف مملوء بالأسى والحزن البالغ:

هل تريد معرفة مكانك بقلبي؟

لقد عرفت الآن!... استيقظ وكفاك سكونًا!

كنت لي كل شئ بعد " نعمة " و" سجدة "!

هل شعرت بالغيرة من " مريم " و" شيرين "؟

لن يشاركني في حبك أحد، ولن يأخذ مكانك مخلوق، كفاكَ خداعًا لي، تحرك واقفز حولي من جديد، لست غاضبًا منكَ ولن أعاتبك،

سأحضر لكَ مزيدًا من اللبن الذي تحبه، أخذ يحركه بيده ويزجره لينهض؛ وكأنه حي يستمع إليه!..

يا لها من كلمات ومشاعر!

تجمع حوله العديد من الرجال والنساء والأطفال، بكى الكثيرون لبكائه ولحاله، وافق بعد محاولات مريرة على النهوض ودفن " صخر " فقد مات وانتهى أمره، ساعده رجل على النهوض، وحمل قطه الوفي بين يديه وسار به نحو مقبرة زوجته وابنته؛ ليدفنه بالقرب من المقبرة؛ وليجتمع بذلك أحباؤه في مكانٍ واحد، ويكفي تمزق قلبه لأجلهم جميعًا!

وصل الخبر إلى " مريم "؛ فأسرعت تجري نحوه، وقد أجهشت في البكاء لأجل " صخر " ولأجله، وصلت إليه وقد سار خلفه عدد غفير من أهل المكان، هؤلاء هم مَن جعلهم يدفعون ثمنًا باهظًا من أرواحهم لسنوات!.. إنهم هم مَن يشاركونه حزنه ومصائبه!

سارت " مريم " بجواره وصولًا إلى المقبرة؛ فوضع " صخر " قريبًا منها إلى جوار شجرة، وأخذ يحفر له هو ورجلان، ساعداه في الحفر، ظلَّ يبكي ويصرخ بصورة مؤلمة ويضمه إلى صدره ويقبله؛ ويصيح: لا تتركني!... لا تتركني!... لقد أصبحت وحيدًا بدونك يا صديقي!

ثمَّ وضعه إلى داخل الحفرة، وردم التراب فوق جسده، وهو يبكي وينتحب، فبللت دموعه الثرى فوق جسد "صخر" وداعًا أخيرًا مفعمًا بالألم والشجن!

ساعدته " مريم " على النهوض بعد رفضه المغادرة؛ لكنه امتثل لكلامها بالأخير؛ لشعوره بالتعب، ولرفض الجميع الانصراف إلا بعد مغادرته؛ مما جعله يشعر بالامتنان لهؤلاء البشر، كان يراهم لأول مرة بعيون مختلفة، أصبح أخيرًا له قلب يسمع نبضه بعد أن توقف عن الحياة طويلًا، قلب لطالما عاش على آلام ومعاناة هؤلاء المساكين، وكأنه قطعة من الجمر تسكن صدره وبين ضلوعه؛ فشتان بين الأمس واليوم!

غادر مودعًا " صخر " بالدموع والآهات، كاد قلبه ينخلع لأجله ، كاد يموت لولا رحمة ربه!

بقيت " مريم " إلى جواره حتى وصلت معه إلى البيت، كان في حالة إعياء شديدة، دخلت معه وأعدت له كوب من عصير الليمون، وأرغمته على تناوله مع قرص مهدئ لينام، سألته لو أن هناك صديق مقرب منه تتواصل معه وتطلب منه الحضور والبقاء معه يوم أو يومين، فأخبرها رقم " كامل "!

تواصلت معه؛ وأخبرته بما حدث؛ فوافق على المجيئ على الفور، وأخبرها بالحضور سريعًا، انصرفت بعد وصول صديقه، واستسلامه للنوم بتأثير المهدئ..

عادت " مريم " إلى غرفتها بحالة بالغة السوء، فقد حزنت لموت " صخر "، وبهذه الطريقة البشعة، وحزنت لأجل " رحيم " وما يشعر به من حزن وأسى..

تذكرت حينما ذهب معها " صخر " إلى المستشفى لإحضار الدواء لرحيم، ثمَّ عاد معها مرة أخرى ليوصلها بصورة آمنة، أخذت تبكي بشدة وقد أخفت وجهها بين يديها وصارت تتقلب بالفراش، لشدة ما تشعر به من ألم فاق تحملها، تورمت عيناها لشدة البكاء، لم تجد مفر مما تشعر به سوى أخذ قرص مهدئ أيضًا لترتاح من هذا العذاب ومن ثمَّ تنام!

ذهب " رحيم " في سباتٍ عميق، وكان بين الحين والآخر يستيقظ فزعًا، مناديًا على " صخر "؛ ثمَّ يربت على كتفه صديقه " كامل " ويحاول تهدأته حتى يعود للنوم مجددًا، و قد ترك المذياع مفتوحًا بصوت منخفض على إذاعة القرآن الكريم!

استمر " كامل " معه إلى اليوم التالي، وقد أخذ أجازة من عمله، حتى جاءت " شيرين " وعرفت بما حدث، تركها معه لينتهي من بعض الأمور ثمَّ يعود إليه فور انصرافها..

جلس " رحيم " معها، وقد كان في حالة سيئة، انتفخت عيناه من البكاء، ذقنه بدون حلاقة، بملابس البيت، صامت بحال غير التي رأته بها من قبل؛ لكنها لم ترغب بالرحيل، جلست على مقربةً منه، وتعاملت معه بحنو زائد، تحدثت إليه بكلمات خرجت من القلب؛ لشعورها بما يشعر من ألم، أدرك اهتمامها به، وأن ما تفعله ليس مم منطلق العمل؛ فحسب!

- أعلم أن كلماتي لن تغير ما حدث ولن تعيد لكَ " صخر "؛ لكن الحياة يغلب حزنها فرحها، تحتاج أن نواجهها بقوة، وآراك قويًا للغاية منذ أن قررت أن تحكي ما مررت به، قوة كبيرة جدًا أرفع لكَ القبعة من أجلها، قررت أن تجسد كل ما شعرت به واقعًا أمامك!.. كلمات ثمَّ شخوص، قرار قوي وشجاع؛ وسنكتب عن " صخر " أيضًا!

" صخر " حضر معنا أول جلسة عمل؛ لكن شاء القدر ألا يكمل معنا بجسده؛ لكن سيظل بطلًا معنا بالعمل!

كانت كلماتها سكنًا وملاذًا له، كم هي شخصية رائعة تنال إعجاب من يتعامل معها، مكث ينصت لها باهتمام؛ وتابعت حديثها:

لم تكن حياتي سعيدة أبدًا، أشعر أنني تجاوزت الخمسين على الرغم من أنني في منتصف العقد الثالث، فررت من قسوة والدي، إلى زوج لا يشعر بوجودي، لا يهتم إلا بعمله واهتمامه

بي قاصر على رغباته فقط، وفي غير ذلك أنا لست حاضرة في ذهنه البتة، لم يقدر الله لي الإنجاب، ولم يشجعني زوجي على المتابعة والاهتمام بالأمر؛ فلا يشغله الأطفال؛ بل يراهم مصدر ازعاج..

لم يحطمني كل هذا!.. نعم؛ يؤلمني نفسيًا بين الحين والحين، لكن لم يضعفني، أصبحت ناجحة جدًا في عملي، اهتم بنفسي على كافة المستويات، فإذا شعرت بالفتور من العمل، أهرب قليلًا لأى مكان واستمتع..

زادت كلماتها من إعجاب " رحيم " بها وبصلابتها، وأيقظت شعوره بأنه ليس وحده المتألم في هذا العالم، ليس وحده مَن يُعاني، ما كان ليرى غير نفسه، وما يحدث معه فحسب!

كان يرى أن الجميع سعداء ماعدا هو، وكان هذا الفكر هو الغذاء الذي كبرت معه اللعنة وتوحشت..

ابتسم لها وأبدى لها امتنانه على بقائها رغم عدم قدرته على التحدث بالعمل اليوم، وعلى محاولاتها التخفيف عنه؛ والتي تركت أثرًا رائعًا في نفسه...

ضحكت ضحكتها الرائعة، التي يشرق معها وجهها، وتحدثت بدلال:

تحت أمرك ورهن إشارتك؛ " رحيم "!.. ستجدني في أى وقت، ليس شرطًا أن اتواجد بجانبك للعمل فقط!

تلون وجهه بحمرة الخجل من جرأتها الزائدة؛ ثمَّ ابتسم ولم يجب، وإذا به يشعر بآثار أقدام تدخل من الباب؛ حيث تركه " كامل " مفتوحًا بعض الشئ، كما طلب منه " رحيم "!

كانت المفاجأة لهما رؤية " مريم ".. فقد جاءت للاطمئنان عليه؛ لتكون مفاجأة غير سارة حيث وجوده مع تلك المدعوة " شيرين "!

لم تتفوه " مريم " بأى كلمة، لقد لجمها الموقف، ظلت تنظر إليها وقد ارتدت فستانًا أنيقًا أسود اللون، يظهر أكثر مما يخفي وقد وضعت إحدى قدميها على الأخرى بالقرب من " رحيم "، وقد كشفت ساقيها بصورة مثيرة..

ظلت " مريم " تحدق بهما وقد تملكها الغضب؛ ثمَّ تواجهت مع عين " رحيم "؛ وكأنها تتشاجر معه وتعاتبه على ما تراه نصب عينيها، بينما أخذ ينظر إليها بحزن؛ لما فرضته الظروف عليهما وقضت به!

أمسكت " مريم " بباقة الورد التي قد أحضرتها معها من أجله؛ ثمَّ ألقت بها على الأرض، وأسرعت صوب الباب واندفعت خارج البيت؛ وهى تبكي!

تقابلت أثناء خروجها مع " كامل " الذي بدا عليه القلق من خروجها في تلك الحالة والصورة؛ فأخذ ينادي عليها:

دكتورة/ مريم!

ماذا حدث ؟

لم تجبه؛ وانصرفت بخطوات متسارعة..

بينما دلف داخل البيت؛ ليجد " رحيم " مطاطئ رأسه نحو الأسفل، وقد أسند بيديه أسفل ذقنه، بينما شعرت " شيرين" بمزيد من الحرج بعد وصول " كامل "؛ فنهضت من مقعدها واستأذنتهما متعللة بضرورة انصرافها الآن، على أنها تنتظر مكالمة من " رحيم " في القريب العاجل؛ لاستئناف العمل مجددًا؛ بالطبع بعد تحسن حالته..

خرجت وهى تشعر بخيبة الأمل، من حضور هذه الفتاة وإفساد مخططها، وقطع ما نصبته من شباك حول " رحيم " في تلك اللحظات!

جلس " كامل " بجوار صديقه، يرغب تفسيرًا لما حدث، أخبره " رحيم " بما حدث، وبما يشعر به نحو " مريم " وما تشعر به أيضًا وتأكد اليوم نحوه، حين رأى ولمس غضبها من رؤية " شيرين "!

نظر إليه " كامل "؛ وتحدث بصوت يشوبه الحزن والأسى من أجل صديقه :

وماذا ستفعل؟!

نهض " رحيم " من مقعده؛ ونظر إليه:

سأغير ملابسي وأذهب إليها، لن انتظر حتى الصباح، لابد أن اتحدث إليها، موضحًا لها حقيقة الأمر!

أسرعت " مريم " إلى داخل غرفتها، وألقت بنفسها على الفراش، أخذتها نوبة بكاء هيستيري؛ بلا توقف لدقائق، فلم تبكِ هكذا عندما قررت عدم اتمام زواجها، فما تشعر به نحو " رحيم "، ليس ما كانت تشعر به نحو " محمود " على الإطلاق!

أدركت حينها أنها تحب " رحيم " حبًا حقيقيًا؛ وأدركته ولمسته فعليًا بداخلها، من خلال موقفها وردة فعلها، حينما رأت هذه المرأة تجلس على مقربةً منه، إنها نيران تأكل قلبها بلا رحمة،

وكم رغبت في صفعها؛ لكن كرامتها رفضت هذا، فلم تطيعها البتة!

وراحت تتساءل؛ مَن هى بالنسبة لرحيم؛ لتفعل هذا؟!!

لم يتحرك له ساكنًا لأجلها، لم يخرج خلفها، ظلَّ ينظر إليها نظرات عجز فحسب، ليس لها وجود بقلبه، ليست أكثر من صديقة فرضتها الظروف عليه..

يا له من شعور قاسٍ ؛ ووجع لا يحتمل!!

أخرجها من معركتها النفسية صوت ارتطام بزجاج النافذة، كأن هناك مَن يقذف شيئًا حادًا صوب النافذة، شعرت بالخوف ونهضت لتنظر، كي تعرف؛ ماذا يحدث بالخارج؟

اقتربت من النافذة، وأخذت تمسح عينيها من الدموع، فإذا برحيم ممسكًا بباقة الأزهار التي أحضرتها لأجله، وقد ألقت بها على الأرض وانصرفت، يقف أسفل النافذة ويقذفها بالحجارة؛ لتشعر به ومن ثمَّ تتنبه لوجوده؛ فتخرج لمقابلته..

فتحت النافذة؛ ونظرت إليه والدموع تنهمر من عينيها..

ابتسم لها وتحدث بصوت مرتفع ليصل إليها بالطابق الثاني:

أحبك!... أحبك بجنون!

لم تصدق أذنيها، تخالطت مشاعرها، فقد أخذت تبكي وتضحك في آنٍ واحد؛ ثمَّ صاحت بصوتٍ مرتفع:

أحبك أيضًا!

أخذا يتبادلا الضحكات ونظرات الحب، وأخبرها " رحيم " بحضوره لاصطحابها بعد عملها غدًا؛ ولتذهب معه إلى زيارة أسرته..

الفصل العاشر

أيقن كلا منهما حقيقة مشاعره نحو الآخر، جمعتهما الظروف فعشقت القلوب، جاء " رحيم " بالفعل لاصطحابها وقد ارتدى بدلة سوداء رائعة، بدا سعيدًا بهذا البوح، رآها كأنها عروس مشرقة، ازدادت جمالًا فوق جمالها بهذا الفستان الوردي، أمسك بيدها وقبلها لأول مرة؛ فتوردت وجنتاها بلون فستانها، وابتسمت في خجل، لم يشعر" رحيم " بهذه المشاعر منذ رأى زوجته " نعمة "، أدرك في تلك اللحظة كم أنه يحب " مريم " حقًا؛ وأنه يريدها زوجة تعوضه عن كل ما مضى وتكمل معه مشواره في الحياة..

طلب منها أن تجلس معه في النادي قليلًا، قبل ذهابهما لأسرته، لديه الكثير ليخبرها به، جلس في مقعد مقابل لها؛ ليتمكن من رؤيته لها أمامه وهو يحادثها، فكم يرغب في أن يتأمل جمالها، وكم يعشق خجلها البريئ هذا، وابتسامتها الممتزجة بسحر الربيع الذي يحبه دون الفصول!

نظر إليها؛ وقد تحدثت عيناه بالكثير قبل أن يبدأ حديث الشفاه، رأت حبه لها جليًا بعينيه..

- منذ رأيتك عرفت أنكِ هدية قد أرسلها الله لي، طوق النجاة الذي أمسكت به وأنا مشرف على الغرق، فقد عاد قلبي لي مرة أخرى؛ لهذا كله منحتك إياه، إنكِ تستحقينه بجدارة " مريم "!

ما كانت أى امرأة أخرى قادرة على إبعادي عنكِ؛ مهما بلغت من الجمال أو الاناقة أو الفكر، لست من هذا النوع، كدت أموت من أجل زوجتي ثمَّ ابنتي؛ وذلك لأني أحببتهما حد الجنون، وأصبحتي أنتِ الآن مثلهما في نفس المكانة والمنزلة بداخل قلبي، ففي السابق وبغير إرادة مني، تلاشت الألوان وأصبحت لا أرى إلا اللون الأسود، النيران كانت تشتعل بداخلي وتحرقني، صار وقودها الموت، لقد عدت معكِ إلى الحياة مجددًا؛ حبيبتي!

كم كنت ملعونًا ومنبوذًا من الجميع ماعدا " صخر " رفيق دربي، ويبدو أنه رحل وقد علم؛ أنني لن أكون وحيدًا بعد ظهورك ووجودك في حياتي، شعرت به كثيرًا يركض نحو باب البيت من وقت لآخر وينظر، كان يبحث عنكِ وينتظر قدومك؛ ليرى ويشهد سعادتنا معًا؛ أنا وأنتِ!

إن " سجدة " ابنتي، كان لها حلمًا جميلًا رغم صغرها، فقد أرادت أن تجمع كل مَن فقد أمه مع كل أم فقدت ابنًا أو ابنة لها معًا في مكان جميل، هذا المكان يفضل أن يطل على حديقة رائعة، ومبهجة..

أرادت أن تمنع الشعور بالألم بعد فقد عزيز على أي نفس بشرية، كانت تقف بجوار الباب، تراني ممسكًا بصورة والدتها وأبكي،

شعرت بالذنب لقدومها إلى الحياة؛ وكأنها السبب في فقدان والدتها " نعمة "!

أرادت أن تكفر عن جرمها الغير مقصود، وماتت قبل أن تحقق هذا الحلم الجميل، ومات حلمي في أن أراها تكبر أمامي، وبرحيلها كأنني رحلت معها وعدت شخصًا آخر لا أعرفه حتى ظهورك بحياتي، صدقًا كم أرغب في تواجدك معيَّ للأبد!

-جاهدت " مريم " نفسها طويلًا رغبتها في البكاء؛ لكن فشلت بالنهاية مع حديثه لها المفعم بالمشاعر، تألم قلبها بشدة لأجله، فرحت بمشاعره نحوها، قد أدركت هذه اللعنة جيدًا، وكيف جاءت من آلام فقده لتقتل بكل قوة وضراوة كل من اقترب من تحقيق حلمه ونام سعيدًا ينتظر، أدركت سر الاختيار وعادت بالذاكرة إلى كل من اقتربت منهم... " ثناء "... " عثمان "... الصغير " عبد الرحمن "؛ وآخرهم زميلتها بالعمل... شقيقتها التي أنقذتها وغيرهم!!!!

أدركت حينها؛ أن لها دورًا كبيرًا في إنقاذه، وإنقاذ الجميع، وأن عليها ألا تتخلى عنه!... مدَّ يده ومسح دموعها بحنو؛ فابتسمت له وأمسكت بيده..

- اتركها تنهمر؛ يا " رحيم "!

أتدري؛ إنها دموع حبي لكَ منذ عرفتك، ودموع حزني على كل ما مررت به، دموعي على زوجتك وابنتك وصخر وعلى الجميع، دموعي على نفسي وما عانيت قبل مقابلتك، دموع سعادتي بمشاعرك نحوي..

دموع غالية؛ لكن لابد لها أن تسقط لتحل محلها دموع الفرح، لأجل بداية جديدة، ومن هذه اللحظة!.. وعليكَ أن تعلم؛ يا حبيبي! أنني لن اتخلى عنكَ بعد اليوم!

غادرا المكان وقد تبادلا معًا حديث القلوب، حديث مفعم بالحب، حلم لهما معًا؛ سيحاربان به هذه اللعنة ويقضيان عليها، سارا وقد أمسك كلا منهما بيد الآخر.

فتحت " أمينة " شقيقته الصغرى، باب الشقة؛ ولتصرخ فرحة برؤيتها " رحيم ".. فقد ألقت بنفسها بين ذراعيه، ذرفت دموع الفرح بقدوم شقيقها الأكبر، لم تصدق حضوره أمامها؛ وكأنها تحلم!

مازالت " أمينة " تدرس بالجامعة، فقد حصلت على مجموع كبير في المرحلة الثانوية، والتحقت بكلية الصيدلة، تشبه والدها بصورة كبيرة على العكس من " رحيم " وشقيقتها " فاطمة " فقد أخذا الكثير من والدتهما، تميل بشرتها إلى السمرة، تتمتع بشعر أسود طويل وابتسامة ساحرة، تلمع معها عيناها السوداء الواسعة، مرحة للغاية..

وقد سلمت على " مريم " بحفاوة، شعرت أنها تتمتع بمكانة كبيرة لدى شقيقها؛ لهذا احضرها معه بعد كل هذا الغياب!

دلفوا جميعًا داخل الشقة، المكان مرتب بعناية، تفوح منه رائحة البخور الجميلة، جلس " رحيم " و" مريم " متجاورين على كنبة الصالون؛ بينما جلست " أمينة " على مقربة منهما، بعد أن أطفأت المذياع..

بادرها " رحيم " يسأل عن والدتيهما؛ فأجابته أنها بغرفتها، ستدخل إليها في التو وتخبرها بشأن قدومه هو وضيفته!

نهض من مقعده؛ وأشار إليها بعدم الذهاب؛ قائلًا:

- أمينة؛ انتظري!.. لا عليكِ!.. سأقوم أنا بالدخول إليها!

وأسرع صوب غرفة والدته، وحينما دلف إليها وجدها تجلس على سجادة الصلاة، تنهي صلاتها، انتظر قليلًا ريثما انتهت؛ ثمَّ جلس بجوارها وأخذ يقبل رأسها ويديها؛ وإذا به يبكي، فلم يستطع كبح جماح دمعاته!

أخذت تضمه وتقبله وتبكي بشدة هي الأخرى، امتزجت دموعهما معًا، نظرت إليه غير مصدقة إجابة الله لدعواتها سريعًا بهذا الشكل، كانت تدعو في صلاتها أن تراه ولو لمرة أخيرة قبل موتها!

ابني " رحيم "!... هل آراك حقًا أمامي!.. هل نسيت أمك كل هذا الوقت؟!

- لم أنساكِ أبدًا؛ يا أمي!.. سامحيني!... أفقدني الألم صوابي، " نعمة " و" سجدة " ثمَّ والدي، كدت أموت من الحزن على فراقهم؛ يا أمي!... آه؛ لو تعلمين كم اشتاق إليكِ!

ابتعدت عنكِ لأجلك، ما كنت " رحيم " الذي تعرفيه، أشفقت عليكِ من رؤيتي هكذا!... لكن ها أنا عدت إليكِ ولنفسي القديمة وللحياة، وقد أحضرت إليكِ من أعادتني مرة أخرى لصوابي!.. أرغب في أن تقابليها؛ إنها تُدعي " مريم " يا أمي!

" مريم " تعمل طبيبة، وقد نجحت في علاجي، أريدها شريكة لحياتي، وابنة لكِ، وأعدكِ ألا ابتعد عنكِ بعد اليوم!.. سامحيني أرجوكِ!

مسحت دموعه بيدها وابتسمت له؛ فالأم دومًا تسامح وتغفر وتحب، شعلة عطاء مهما جحد الأبناء:

أسامحكَ!... لماذا تطلب مني السماح؛ فلم يغضب قلبي عليك لحظة واحدة، كنت أدعو لك دومًا بالسكينة، وراحة القلب وبمَن تعوضك هذا الحزن والألم، وتمنحك الحب والسعادة، وأجاب الله كل هذا، برحمته التي وسعت كل شئ..

قضى كلا من " رحيم " و" مريم " وقتًا جميلًا وممتعًا مع والدته و" أمينة "، لم تشعر " مريم " بالغربة برفقتهم، بدت وردة جميلة أحبها الجميع، وتبادلوا أحاديث مختلفة، اتصل " رحيم " بشقيقته " فاطمة "؛ لأنها تسكن بعيدًا حيث أنها تزوجت ورحلت إلى محافظة أخرى، اطمئن عليها وعلى أحوالها، ووعدها بزيارة قريبة هو و" مريم "، تحدث أيضًا عن زيارته لأسرة " مريم " في القريب العاجل؛ لتحديد موعد زواجهما وأخبرته والدته عن رغبة " علي " ابن خاله - ضابط بالجيش، في خطبة " أمينة " وإتمام الزواج بعد انتهاء دراستها، وعبرت له عن رغبة شقيقته وموافقتها على الارتباط به..

نظر " رحيم " إلى " أمينة "؛ فوجدها قد احمرت خجلا ونظرت بعيدًا عنه؛ فضحك وتمنى لهما السعادة وأبدى مباركته لهذا الزواج..

انصرف "رحيم " و" مريم " تغمرهما دعوات والدته لهما بالسعادة، أوصلها إلى غرفتها، ثمَّ عاد إلى بيته كطائر هدأ وسكن بعد أن اهتدى لأيكه بعد فترة تيه طويلة..

دقَّ جرس الهاتف؛ إنه صوت المدعوة " شيرين "، وقد تحدثت إليه بصوت جاد على غير عادتها:

- اتصلت بكَ أكثر من مرة اليوم، أردت حضورك غدًا في الظهيرة بشقتي لنكمل العمل الذي بدأناه، فأنا متعبة قليلًا والضغط منخفض، وقد نصحني الطبيب بالراحة هذا الأسبوع وعدم بذل مجهود، وأريد الانتهاء من التسجيل غدًا لأكتب السيناريو أثناء وجودي بالمنزل وانتهي منه سريعًا، إنها جلسة واحدة غدًا ويبدأ عملي بمفردي بعدها!

- اعتذر!.. لقد خرجت لزيارة أسرتي وعدت منذ قليل، اتمنى لكِ الشفاء العاجل!.. فكرة جيدة!.. رغم أنني لا أرغب في إرهاقك؛ لكن سأحضر غدًا بالموعد لننتهي من التسجيل؛ نظرًا لانشغالي أنا أيضًا الفترة القادمة!

أخبرته بعنوان شقتها، وأنهيا الاتصال بينهما، شعر بالراحة لسرعة إنجاز هذا الأمر وانتهاء العمل سريعًا مع هذه المرأة اللعوب، مخافة غضب " مريم " من استمراره معها؛ وليعطي كذلك ترتيبات زواجه كل اهتمامه..

وصل " رحيم " إلى العنوان الذي ذكرته " شيرين " وصعد إلى الطابق الثالث، شقة ٢... وجد باب الشقة مفتوح قليلًا، وظلَّ يدق جرس الباب كثيرًا، دلف داخل الشقة؛ فقد اضطر إلى ذلك، حيث ظل واقفًا لفترة طويلة، ولم يجد إجابة، وقد أخذ ينادي بصوت مرتفع:

" شيرين "!!!

أنا " رحيم "!!!

كان بانتظاره أمرًا يفوق تحمله؛ إنه جسد " شيرين " ممددًا على الأرض قريبًا من غرفة النوم جهة اليمين من جهة باب الشقة، أسرع نحوها في ذهول وصدمة، كانت ترتدي قميصًا أبيض اللون، قصير وشفاف يظهر جسدها، وقد لطخته دماؤها باللون الأحمر إثر طعنة من سكين بصدرها، والسكين على مقربة منها، أمسك بيدها ليتابع نبضها؛ فوجدها قد فارقت الحياة، ترك يدها وقد جحظت عيناه، وتسارعت دقاته، نهض واقفًا وقد أمسك رأسه بكلتا يديه وقد شلَّ تفكيره.. ويتساءل:

هل يرحل ويتركها؟!

هل يتصل بالشرطة ؟!

ظلَّ يتحرك حول نفسه بصورة دائرية في غضب عارم، يردد بصوت مرتفع:

مَن قتلها؟... مَن قتلها؟!

لحظات؛ وهو في صراع مع نفسه، أوقفه صوت سيارات الشرطة بالمكان وصوت سيارة الإسعاف، وصوت أقدامهم تصعد على الدرج وكأنها طرقات فوق رأسه، ظلَّ متسمرًا في مكانه، وقد صوب نظره نحو الباب ينتظر مصيره!

أحاط به مجموعة من رجال الشرطة؛ فرفع يديه إلى أعلى واستسلم لهم، مرددًا:

لم أقتلها؛ وجدتها مقتولة!

انتشر رجال البحث الجنائي بالمكان؛ لرفع البصمات وتصوير الجثة ومكان الحادث، وتمَّ إلقاء القبض على " رحيم " وأخذه إلى قسم الشرطة؛ حيث اتصل بصديقه " كامل " وأخبره ما حدث للحضور معه، صدمة قاسية تلقاها " كامل " فأغلق الهاتف وأسرع إلى قسم الشرطة بمنطقة الجريمة..

تمَّ فتح المحضر وأخذ أقوال " رحيم "؛ وهو في حالة انهيار تام..

وكانت الشرطة بانتظار تقرير رفع البصمات وتشريح الطب الجنائي للجثة بعد نقلها للمشرحة، ومن ثمَّ معرفة سبب الوفاة، وتحديد المتهمين، وقد تمَّ العثور على جهاز التسجيل والأوراق الخاصة بعمل " رحيم " على منضدة قريبة منها، ونظرًا للعثور على " رحيم " في مسرح الجريمة؛ سيتم التحفظ عليه أربعة أيام على ذمة التحقيق، وجاري استدعاء زوج القتيلة والتحقيق معه وأيضًا بواب العمارة والجيران...

تألم " كامل من أجل صديقه " ووعده بإثبات براءته قريبًا، وأحضر له طعام وزجاجة مياة وعصير..

دخل " رحيم " الحجز لأول مرة في حياته، مع الخارجين على القانون، قد يكون هذا عقابه بالنهاية على ما حدث، جريمة لم يقترفها، وحبيبة يتم إبعاده عنها..

الفصل الحادي عشر

قبع "رحيم " داخل الحجز في ركن بعيد عن المتواجدين معه؛ وكأنه يحيا في كابوس يتمنى الاستيقاظ منه، وأخذ شريط حياته يمر أمام عينيه وكأنه شريط فيلم سينمائي، منذ بدايتها وحتى رغبته في الزواج من " مريم "!

" مريم "!.. يا ترى ماذا ستفعل عندما تعرف؟!.. هل ستصدق؛ بأنني قاتل؟.. هل ستبتعد عني؟!!

ولأنه تؤام لروحها؛ كانت " مريم " تستشعر بأن به خطبًا ما، اتصلت به كثيرًا بلا إجابة، شعرت بالقلق، فالأمور كانت تسير على نحو جيد، لم تجد مفرًا سوى الذهاب إليه والخروج من هذا التوتر اللعين..

ذهبت بالفعل إلى المنزل، لكن الأنوار كانت مطفئة ولا يبدو بالداخل، طرقت الباب كثيرًا بلا جدوى، ازدادت مخاوفها وقلقها عليه..

تذكرت صديقه " كامل "، ورأت ضرورة الاتصال به؛ ليبحث معها عن " رحيم "..

اتصلت به وكانت المفاجأة الصادمة، عرفت مكانه وما تمَّ اتهامه به من قتل " شيرين"، كانت أخبار قاسية للغاية عليها..

لم تصدق هذا أبدا عنه، وقالت بأن هناك خطأ في الأمر، لقد تمَّ الإيقاع به وتوريطه لا محالة، وقررت أنها لن تتخلى عنه وستكون بجواره، طلبت من صديقه أن يخبرها كل شئ، وأن يرتب لها زيارة لرحيم إذا أمكنه ذلك..

استمرت التحقيقات؛ تمَّ استجواب زوجها والتأكد من مكان وجوده وقت حدوث الجريمة؛ حيث تواجد في شركته منذ الساعة الثامنة صباحًا لحضور اجتماع هام ولم يغادر إلا بعد معرفته خبر قتل زوجته، وأكد العاملون معه صحة هذا الكلام، وهذه الأقوال التي أدلى بها أمام النيابة وخلال التحقيقات، ثمَّ تمَّ استدعاء الحارس أو البواب الذي أكد على رؤيته صديق لها، يتردد على منزلها من وقت لآخر، وشاهده بصحبتها كثيرًا، شاهده أثناء صعوده في الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا؛ لكن لم يشاهده وهو يغادر، كذلك كشفت البصمات على وجود بصمة لرحيم على يد القتيلة، وهناك بصمة أخرى مجهولة على جهاز التسجيل الخاص بها، وأكد تقرير الطب الشرعي أن الوفاة حدثت ما بين الساعة العاشرة ونصف والساعة الحادية عشرة صباحًا، نتيجة طعنة نافذة في الصدر تسببت في تهتك في شرايين القلب، ومفاجأة التقرير أن القاتل يستخدم يده اليسرى؛ لا اليُمنى!

أكد " كامل " المحامي بعد قراءة التقرير أن السيناريست " حسين فؤاد " موكله وزميل القتيلة يستخدم يده اليسرى في كل شئ، وطالب بضرورة استدعائه وأخذ بصماته ومواجهته بالبواب للتعرف عليه، وإثبات مكان تواجده وقت حدوث الجريمة وأن " رحيم " يستخدم يده اليمنى؛ فحسب!

جلس " كامل " مع " رحيم " وطمأنه على أن الأمور تسير في صالحه؛ وسيكون كل شئ على ما يرام بإذن الله تعالى، وستظهر براءته قريبا ان شاء الله، وأن القاتل حتمًا هو " حسين " وأخبره أن " مريم " اتصلت به وعرفت ما حدث وترغب في زيارته، وأنها واثقة به، ومستعدة الوقوف بجانبه لحل هذه الأزمة!..

-كانت نتيجة كلام " كامل "، أن رفض " رحيم " زيارتها له في هذا المكان، وأخبره أن يتواصل معها، ويخبرها بكل ما هو جديد، وأكد على ضرورة إخفاء الأمر عن أسرته من أجل صحة والدته...

استمرت التحقيقات؛ وتمَّ استدعاء " حسين " ومواجهته بالبواب الذي أكد أنه صديق القتيلة الذي حضر صباح يوم الجريمة، وتمت مطابقة بصمته مع البصمة الموجودة على جهاز التسجيل، وعجز كذلك عن إثبات مكان تواجده وقت حدوث جريمة القتل، والتأكد من أنه يستخدم اليد اليسرى وليس اليمنى، بمواجهته بكل هذه الأدلة اعترف بارتكابه الجريمة؛ وقتله المدعوة " شيرين "..

فقد ارتبط بعلاقة عاطفية مع " شيرين " منذ عام تقريبًا، وتوطدت العلاقة بينهما؛ نظرا لانشغال زوجها المستمر وإهماله لها، وقد اكتشفت مؤخرًا زواجه بأخرى سرًا، والتي كان يتردد عليها في شقتها من وقت لآخر، وقد لاحظ مؤخرًا تجاهلها له بعد ظهور " رحيم " وتعاملها معه، رفضت حضوره إلى شقتها أكثر من مرة، وباتت لا تجيب اتصالاته، أصبحت تحدثه بجفاء، انتظر لذا انتظر أمام منزلها حتى خروج زوجها مبكرًا؛ ثمَّ جلس على مقهى كائن بالقرب من منزلها لأكثر من ساعة، احتسى قهوته وكتب بعض الملاحظات الخاصة بعمل جديد، وبالنهاية قررالصعود إليها، فتحت له الباب وقد ظهر عليها الضيق، كانت ترتدي قميصًا للنوم، شفافًا يظهر كل مفاتنها، قصير بصورة فجة، لم يتمالك نفسه؛ حيث أخذ يرمقها بنظرات شهوانية، ومن ثمَّ حاول الدخول فمنعته ووقفت أمامه، اعترضت طريقه، وبادرت بغلق باب الشقة في وجهه؛ ماعدا جزء صغير تحدثت من خلاله؛ قائلة:

- لماذا حضرت بدون موعد؟!

لدي عمل هام هنا في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا!.. انصرف الآن؛ وسأحادثكَ هاتفيًا بعد الإنتهاء!.. هيا ارحل!

- دفعها " حسين " بيده؛ ودلف إلى داخل الشقة؛ ثمَّ نظر إليها بحنق؛ قائلًا:

مع مَن هذا العمل الذي تقومين بطردي من أجله؟.. مع " رحيم "؛ أصحيح؟!

أغلقت الباب خوفًا من سريان الصوت؛ ثمَّ نظرت إليه وقد عقدت حاجبيها:

- نعم معه!.. ماذا تريد!... فلا شأن لكَ بأموري وعملي على الإطلاق!

ضحك بصوت مرتفع كالمجنون؛ ثمَّ لمح الأوراق وجهاز التسجيل على المنضدة فأسرع وأمسك بالجهاز وأخذ يستمع إلى كلام " رحيم "، ثمَّ أغلقه وأعاده إلى مكانه:

- هل هذا البائس أفضل مني؟!

أتفضلين هذا المعتوه عليَّ؟

أتنتظريه كي تعرضي عليه مفاتنك بهذه الصورة التي أراها؛ ليرضى عنكِ؟

آراكِ كالحرباء تتلونين مع كل رجل بلون، تتعاملين مع الرجال كالأحذية انتقامًا من زوجك الذي لطالما أهملكِ!..

رفعت يدها بغضب وصفعته على وجهه بقوة؛ فاشتعلت النيران بداخله وأسرع نحو المطبخ وأمسك بالسكين، وخرج إليها وطعنها بها بقوة، فسقطت على الأرض وقد سألت الدماء من الجرح بغزارة، مسح آثار بصماته من على السكين وألقى بها بجوارها، ثمَّ مسح بصماته أيضًا من على الباب وغاب عنه بصمته على جهاز التسجيل!.. ومن ثمَّ غادر مسرعًا، وظلَّ منتظرًا على المقهى...

وفور رؤيته " رحيم " اتصل بالشرطة، وأخبرهم عن حدوث جريمة القتل هذه، وأعطاهم عنوان المنزل بالتفصيل؛ ثمَّ غادر المكان سريعًا..

وأخيرًا؛ تمَّ بعد ذلك الإفراج عن " رحيم " وإحالة " حسين " إلى النيابة، كانت " مريم " بانتظاره أمام قسم الشرطة، أسرعت نحوه تضمه وتبكي بشدة، وأخذ يربت على رأسها في حنو، ما كان يخشى شيئًا إلا حرمانه منها، كان أمرًا فوق طاقته بعد كل هذه المشاعر نحوها، كان هالكًا لا محالة؛ لولا ستر الله!

عادوا جميعًا إلى منزله وبصحبتيهما " كامل "، فرح " رحيم " بما أعدته " مريم " من طعام احتفالًا بعودته، تناولوا الطعام وأعدت لهم أكواب الشاى، ووضعت على مقربة منهم طبق كبير يحتوي بعض الفاكهة، ثمَّ استأذنت وغادرت!

شكر " رحيم " صديقه " كامل " على كل ما فعل لأجله، ورفضه أخذ أى نقود منه مقابل وقته وجهده، فنظر إليه " كامل " معاتبًا:

نحن إخوة وأصدقاء وكل هذا له حقوق، حمدًا لله كثيرًا على أنني التحقت بكلية الحقوق، ولم أهم بالالتحاق معكَ في كلية التجارة!

تبادلا الضحكات؛ ثمَّ نهض " رحيم " عن مقعده وضمه إليه في حب وامتنان، غادر " كامل " وتركه يأخذ قسطًا من الراحة بعد هذا الوقت العصيب..

أخذت " مريم " تفكر كيف تحقق حلم المرحومة - ابنة رحيم؟.... لتزول اللعنة تمامًا ومن ثمَّ يشفى منها " رحيم "، شعرت أن أجمل مكان لهذا لتحقيق هذا الحلم والعمل الرائع هو بيت " رحيم "..

البيت الذي اختارته " نعمة " وعاشت فيه " سجدة " طفولتها وفكرت في حلمها، بيت الذكريات، وحديقته الجميلة تلك، وهو البيت الذي ظهرت به اللعنة ايضًا والذي سيكون سلاح وأدها، وقررت بأن يتم عمل دعاية لهذا المنزل من خلال طباعة الملصقات ووضع إعلان بإحدى الجرائد المعروفة، واختارت له اسم (بيت العائلة)، ليجتمع به كل مَن فقد أسرته أو فقدت

أسرتها، ويخصص له صندوق، يدعمه أهل المنطقة جميعًا كلا حسب مقدرته واستطاعته، مع توفير فرص عمل لهم وأن يعود " رحيم " لعمله مرة أخرى، ويختارا بيتًا لهما غيره، ينقشا معًا ذكرياتهما الخاصة بهما وبأولادهما في القريب العاجل إن شاء الله!

قطع " رحيم " أجازته وعاد إلى عمله بالفعل، وطلب من صديقه المقرب " كامل " البحث عن بيت جميل من أجله هو " مريم "..

وافق على الفور، وهمَّ بالبحث رغم أعماله الكثيرة وانشغاله بالمكتب، وأمور أسرته التي لا تنتهي، فلديه زوجته " كريمة " التي تحبه بجنون، والتي له بمثابة الأم والأخت والزوجة، وقد أنجبت له طفل وطفلة هما كل حياتهما..

كثيرًا ما تلومه " كريمة " على تعلقه برحيم صديقه، وقضاء وقت طويل معه خارج المنزل..

اتصل برحيم وأخبره عثوره على بيت جميل، له حديقة خاصة ومميزة، وينتظر صاحبه إتمام إجراءات البيع..

طلب منه أن يأخذ " مريم " من المستشفى لمشاهدة ومعاينة البيت، فإذا أعجبها يتم تحديد موعد على الفور للتوقيع على عقد ملكيته..

اصطحبها " كامل " من المستشفى، بدت مشرقة ورقيقة كعادتها، لاحقتها نظرات " كامل " خلسة بين الحين والحين، كلما تحدثت أو ابتسمت..

وصلا إلى البيت الجديد، اتسعت عيناها وشهقت بصوت مرتفع عندما رأت الحديقة وقد امتلأت بأزهار التوليب التي تعشقها، متناسقة في منظر عجيب كبساط اجتمعت به مجموعة رائعة من الألوان الحمراء والصفراء والوردية والبنفسجي وغيرها من الألوان التي تخطف العين..

مكث " كامل " ينظر إليها وهى تجوب الحديقة، وقد غمرتها الفرحة كطفلة صغيرة تلهو في مرح، أثارته طبيعتها الملائكية وحيويتها..

نظرت إليه بسعادة؛ قائلة:

- كم أعشق هذه الزهرة؛ إنها رمز للحب والأناقة والجمال وأكثر أنواع الزهور تعبيرًا عن الرومانسية والمحبة الشديدة، تستمر في

النمو بعد قطعها لتدل على الأمل واستمرار الحب، أشعر أن هذا البيت سيفيض حبًا وسعادة..

أخذت تجوب البيت من الداخل، يسير خلفها " كامل " ونظراته لا تفارقها...

يتكون المنزل من ثلاث غرف كبيرة، والمطبخ والحمام مساحتهما مناسبة، الصالة كبيرة والتهوية رائعة، شعرت بجاذبية شديدة نحو البيت، أخبرته برغبتها في الحصول عليه..

فأخبر صاحب البيت بحضوره مع "رحيم " لإتمام الإجراءات وتسجيل العقد..

سار معها وقد كادت تطير من السعادة، أخذ يتابع خصلات شعرها كلما عبث بها الهواء، لامست يده يدها عن غير قصد، فسرت رعشة في جسده وظهر عليه التوتر..

أوصلها إلى المستشفى؛ ثمَّ عاد إلى بيته واتصل برحيم وأخبره بما حدث ورتب معه موعد الذهاب للاتفاق مع المالك، ثمَّ دلف داخل غرفته وأغلق عليه الباب بعد أن أخبر زوجته رغبته في

النوم، كان يتعلل ويتحجج بذلك؛ فرارًا منها ليجلس مع نفسه، صراعًا مع ضميره لخذلانه.. لا يصدق ما يشعر به؛ إنها بعيدة المنال عنه كنجمة بالسماء، ليس له إلا النظر إليها..

ومع " مريم " النظرة أيضًا محرمة عليه؛ فهي ستصبح عما قريب زوجة أعز صديق له..

كان يتجاهل مشاعره نحوها منذ رؤيته لها؛ لكن صار الأمر مؤلمًا على نفسه، صار يهرب بعينيه من الجميع، يخشى افتضاح أمره لزوجته ولرحيم..

سقطت دمعة من عينه، لقد جاهد طويلًا في منعها؛ فصورتها وهى تشم وردتها الجميلة لا تفارقه البتة، ليته كان هذه الزهرة لينعم بأنفاس " مريم " ويذوب في هذا القرب..

لم يشعر بهذه المشاعر قط، ويعجز عن مقاومتها، مشاعر بلا أمل؛ لكنه متمسك بها!

قد يعشق المحبوب عذابه في حبه، ولا يرضى عنه بديلًا؛ لكن إنها خيانة لصديقه لا شك، مشاعر محرمة وليست من حقه على الإطلاق!..

مكث هكذا في صراع مؤلم مع نفسه ومع ضميره، عاجز عن النوم.. ثمَّ اتخذ قرارًا بالنهاية بالابتعاد عن " رحيم " تدريجيًا دون أن يشعر أن هناك شيئًا ما يُخفيه عنه!..

الفصل الثاني عشر

اتصل " كامل " برحيم يعتذر منه عن عدم حضوره كتابة العقد لانشغاله، تعجب " رحيم " من تصرفه وشعر بأن هناك سببًا ما يخفيه عنه، وخمن أنها قد تكون مشكلة يمر بها ولا يريد ازعاجه، تحدث مع " مريم "، وأخبرها عن انزعاجه الشديد من هذا الموقف!

" كامل " لا يتأخر عنه أبدًا مهما حدث، هدأت " مريم " من روعه وطمأنته، وأخبرته أنه قد يكون مجهد ويخفي عنه أو لديه قضية مهمة..

هدأ " رحيم " وذهبا معًا إلى بيتهما الجديد، تمت كتابة عقد البيع ودفع جزء من النقود، واتفقا على الذهاب في اليوم التالي؛ لتسجيل العقد ودفع باقي النقود..

مشاعر جميلة اجتاحت نفس " رحيم " عند رؤية البيت، ورؤية الحديقة، وزهور التوليب، زهرة الحب المتدفق ومشاعر الحب الملتهبة..

بات " كامل " ليلة أخرى معذب النفس، لا يتحدث مع زوجته ولا أولاده، بالكاد يتناول الطعام، عذاب نفسي قاسي، وطيف " مريم " لا يفارقه، مازالت ابتسامتها تنير له الطريق، مشاعره نحوها

فاقت تحمله؛ وكأنه خلق من أجلها وحدها، عجز عن فهم سر تعلقه بها، دخلت مباغتة لقلبه؛ ثمَّ سكنت بداخله..

أراد " رحيم " أن يثبت أمرًا لنفسه، اتصل بكامل ليحضر معه توثيق العقد؛ ثمَّ الاحتفال بهذه المناسبة وبصحبتهما " مريم "..

ما إن سمع اسم " مريم " حتى تلعثم، وتصبب عرقًا وأخبره أنه مريض ويحتاج للراحة؛ ولن يذهب للعمل اليوم أيضًا!

أغلق " رحيم " الهاتف وقد شعر بالانزعاج، هناك تغيرًا ملحوظًا في تصرفات صديقه، فعزم وقرر الذهاب إليه بعد توثيق العقد، وطلب من " مريم " أن تفحصه فور وصولهم ليطمئن عليه..

أصبح البيت هكذا ملكًا لهما، وتمت كافة الإجراءات المطلوبة، وذهبا سويًا إلى بيت " كامل "..

رحبت بهما زوجته:

- أهلًا وسهلًا!

- أهلا بكِ!.... هذه دكتورة " مريم " خطيبتي، أريدها أن تفحص " كامل "، أنا أشعر بالقلق عليه!

-دخلت زوجته غرفته وأخبرته بحضورهما..

نزل الخبر على رأسه كالصاعقة، توقف عقله، لاذت الأفكار بالفرار مذعورة، أصبح بلا حول ولا قوة، لم يجد أمامه غير الإذعان..

- دخلا غرفته و تبادلا التحية..

نظر إليه " رحيم " نظرات مفعمة بالعتاب والتساؤل..

بينما اقتربت " مريم " منه وبدأت كشفها، أشاح بوجهه عنها، كانت لمساتها تحرقه بدون قصد منها؛ وكأن فراشه قد تحول إلى جمرة نار..

تمنى لو يصرخ بها: توقفي!!!

انتهت من فحصه وطمأنتهم أن الضغط مرتفع قليلًا، ويحتاج إلى الراحة وعدم الانفعال يومين أو ثلاثة مع متابعة يومية لقياس الضغط والابتعاد عن شرب المنبهات..

-اقترب " رحيم " منه، وأمسك بيده ونظر إليه في حنو:

اتمنى أن تفعل كل ما ذكرته " مريم " وتطبقه بالحرف الواحد؛ لأجل صحتك ولأجل مَن يحبونكَ!

ولست بحاجة أن اذكرك أننا إخوة وأكثر، ولو أن هناك ما يضايقك وتخفيه عني.....

قاطعه مبتسمًا له؛ وقد امتلأت عيناه بالدموع:

أنتَ أخي وصديقي حتمًا؛ ولن يفرقنا شئ على الإطلاق!

غادر " رحيم " و" مريم "، سارا معًا وقد أمسكت بذراعه لتزداد شعورًا بالأمان، كادت تلامس السحاب من فرط سعادتها؛ لتحقيق حلمها أخيرًا؛ وأحلام أخرى كثيرة، وقد صارت لا تخاف الموت!

بات حلم " سجدة " وشيكًا، بعد طباعة منشورات الدعاية عن المكان، اتفقت على إعلان مدفوع الأجر بجريدة كبرى، بدأت المساهمات تنهال على الصندوق من خارج المنطقة أيضًا وليس داخلها فقط؛ من أجل تجهيز المكان بصورة جيدة، جاري الترتيب لعمل مشروعات صغيرة، تساهم في توفير فرص عمل، يمولها القادرون ماديًا؛ مثل التفصيل وصناعة السجاد والفخار والمطرزات اليدوية..إلخ!

بدأت الجموع المكلومة بألم الفقد تتوالى على - بيت العائلة، وبدأت الأخبار تنتشر بالعمل على تجهيز المزيد من هذه البيوت بأكثر من مكان..

إنه الأمل!.. روح الربيع والأزهار بعدما تمكن الخريف وأبى الرحيل لسنوات..

بينما رتب " كامل " للسفر والرحيل، فرصة جيدة للسفر إلى بلد عربي لاحت له في الأفق، وجدها فرصة جيدة للهروب بمشاعره؛ مخافة أن يخسر صديقه الوحيد؛ فالوقت كفيل بالكثير، ووجوده بالقرب قد يهلكه!

حضر لرؤية " رحيم " وأخبره بسفره في نهاية الأسبوع، ودعه واعتذر له عن عدم تواجده في زواجه بمريم، كان من الصعب تأجيل الموعد..

احتضنه "رحيم " وبكى بكاءًا مريرًا، عجز عن فهمه، وفهم ما يحدث منه، وعن سفره فجأة، فلطالما كان " كامل " ضد مغادرة الأوطان مهما حدث؛ فالوطن هو الأم، ولا يجب الابتعاد عنها!

بكى "كامل "، اختار فراق صديقه كى لا يخسره، اختار الفراق للجميع، رحل يحمل حزنه في قلبه، رفض رؤيتها قبل سفره؛ فما عاد قلبه يتحمل..

ومازال الأمل مع تفتح الأزهار!..

ذهبت " مريم " مع " رحيم " لحضور خطبة شقيقته " أمينة " على ابن خاله " علي " في شقة أسرته، سلم على شقيقته " فاطمة " وزوجها بحفاوة؛ فهو لم يحضر زواجهما، وقدم إليهما عروسه " مريم "..

ارتدت "أمينة " فستانًا جميلًا ذهبي اللون..

وقدمت لها " مريم " باقة من ورود التوليب الرومانسية الرائعة، والتقطت مع العروس صورًا جميلة للغاية..

عزفت الموسيقى مقطوعة رومانسية رقص عليها العروسين، وأمسك " رحيم بيد "مريم " ورقص معها أيضًا، ضمها إليه بكل مشاعر الحب التي يكنها لها، أسندت رأسها على صدره، وأغمضت عينيها، أخذ يستنشق رائحة شعرها، يغوص بداخلها، حلقا معًا فوق الحضور، توحدت نبضاتهم مع أنغام المعزوفة، فصارت جزءًا منها، راحت " مريم " تميل معه بخفة، وتتحسس ظهره بأناملها، هو لها ولن يفارقها، قد يتوقف العزف؛ لكن لن يتوقف العشق، تلامست بشرتيهما، تلاقت الشفاه، وقد ذابت

الأرواح، فقبلها بخفة، ثمَّ توقفت الموسيقى، وتقابلت النظرات، رأى كلا منهما نفسه في عين الآخر؛ وكأن الحب صنع حولهما هالة من المشاعر، حجبت عنهما كل ما يجري حولهما!..

انتهى الحفل؛ استأذن " رحيم " و" مريم" وعزما على الانصراف، وقد أخبر كل الأهل والأصدقاء؛ أن موعد زفافه هو و" مريم " خلال فترة قريبة، فور الانتهاء من تجهيز مسكنهما، اتفقا كلاهما على زيارة أسرة " مريم " في اليوم التالي ليتعرف عليهم ويتعرفون عليه..

استقلت " مريم " القطار بصحبة " رحيم "..

لم تكن وحيدة كعادتها ...كانت تجلس بجواره، وقد أسندت رأسها على كتفه وأمسكت بيده؛ بينما أحاطها بذراعه..

غير القطار مساره وصار رمزا للسعادة بعد أن ارتبط معها بالوحدة والحزن، صار رفيقها بداخله " رحيم "..

فتحت " سلمى " الباب؛ لتجد أمامها شقيقتها و" رحيم "..

أسرعت تضم " مريم " وتقبلها وسلمت عليه، كلمتها عنه كثيرًا خلال الاتصالات بينهما الأيام الماضية؛ فعلمت أنه عريس شقيقتها، حضر الأب والأم ، سلما على " رحيم "، وقبلت " مريم " يد والدها ووالدتها..

احضرت " سلمى " الجاتوه وقنينات المياه الغازية..

تحدث " رحيم " عن نفسه وعن عمله وأسرته، طلب منهم الزواج من " مريم " وصف البيت الذي اشتراه ليقيم به مع "مريم " بعد زواجيهما..

أبدى والديها موافقتهما على الزواج، وهنأتهما " سلمى "..

أخذت " مريم " " رحيم "؛ ليشاهد غرفتها.. مازالت كما تركتها، لم يتحرك شئ عن مكانه، جلس على فراشها، وأخذ يتحسسه بيده، نظر إلى صورة لها معلقة على الحائط، وابتسم لها كانت تلك الصورة بحديقة يحيط بها أزهار التوليب التي تعشقها، تفوقت عليها بجمالها..

جلست بجواره تناجيه عيناها، فأحاط وجهها بكلتا يديه ونظر إليها:

عدت حيًا من جديد لأجلك وحدك، أرى الحياة بعينيكِ الجميلتين، أرى الربيع بزهورك دومًا في كل وقت؛ وكأن قلبي عاد من الموت بميلاد جديد، قلب عاشق يهواكِ؛ حبيبتي!

آنارت كلماته وجهها؛ فابتسمت وقبلت يداه..

-فقدت السيطرة على قلبي منذ رأيتك أول مرة، صار يلاحقك، يبحث عنكِ، يهفو إليكِ، ثمَّ تركني وأصبح لكِ وحدكِ..

ما عدت أرغب إلا بقربك، إن الحياة أصبحت ملك لي بهذا القرب!.. قريبًا سنكون معًا، ولن نفترق!

أوصلها "رحيم " وطبع قبلة رقيقة على جبينها؛ ثمَّ سار وفي نفسه رغبة عارمة لزيارة قبر زوجته وابنته وصخر.

ذهب إلى المقبرة وجلس أمامها، لأول مرة يجلس وليس بقلبه هذه الكراهية نحو العالم بأسره، كان قلبه مفعمًا بالحب للبشر كافة، حب " مريم " الذي أعاد له إنسانيته المفقودة منذ رحيل أحبابه..

جلس يرسل لهم كلماته، وعبر عن شوقه لهم..

-لم انساكِ بها زوجتي الحبيبة!.. رأيتكِ بها منذ الوهلة الأولى، روحها مشعة مثلك، تعشق التوليب مثلك، وكأنكِ عدتِ للحياة مع ما تبعثه هذه الزهرة من حب وعشق، عاد قلبي لكم جميعًا بعد موته، مكانك بقلبي بمنأى عن النسيان!

-ابنتي؛ وقرة عيني، لقد بات حلمك وشيكًا على التحقيق، لتعود البسمة على شفاه كل مَن يتألم، أرسل الله "مريم " لتحقق حلمك وتسعدنا جميعًا، قتلت أحلامًا كثيرة من أجلك، حتى كدت أن أهلك!

وكان الأمل هو طوق النجاة، ما عدت اتألم صغيرتي، فاطمئني!.. مسح دموعه؛ ثمَّ اقترب من مكان "صخر ":

صديقي ورفيق رحلتي مع الألم، افتقدك بشدة، لم ولن أنساكَ، أشعر كثيرًا أنك مازلت ملازمًا لي وتدور حولي، وتجلس على مقربة من مقعدي وفراشي، تختبئ عندما أغضب وأثور، وتقفز وتلعب عندما تراني فرحًا، اطمئن يا صديقي!.. "مريم " ترعاني جيدًا، ولن تفارقني!... لقد عدت رحيمًا بعد غياب، إليكَ مني السلام!

غادر "رحيم " المكان، وقد هدأت نفسه كثيرًا، وشعر بالسكينة..

اتصال هاتفي ... أجاب " رحيم ".. صوت صديقه " كامل "

-كيف حالك يا صديقي؟

وصلت إلى الفندق حيث تمَّ حجز غرفة لي؛ حتى أرتب اموري في هذا البلد!

-الحمد لله أنك بخير يا صديقي، سعدت باتصالك!

أجابه بصوت يشوبه الحزن:

-أردت أن أخبركَ أن محبتي لكَ لا يعلمها إلا الله، وعندما شعرت بخيانتي لكَ رغمًا عني، ابتعدت!

- بصوت انفعالي -

أى خيانة تقصد؟

-لقد شعرت بمشاعر الحب نحو " مريم " رغمًا عني، تعبت جراء ذلك، حاولت الابتعاد مع البقاء ولم استطع، لهذا هربت وقبلت فرصة السفر... سامحني يا صديقي!

انتهى من هذه العبارات؛ ثم أنهى الاتصال!

جلس " رحيم " على مقعده، وقد دمعت عيناه، اشفاقًا على صديقه، وحزنًا على فراقه، فالأمر مؤلم وقاسي..

الحب ليس بأيدينا حقًا؛ هو مشاعر خاطفة للقلوب، مهما حاولنا الفرار منه لن نستطيع، نتألم ونسعد بهذا الألم، نشتاق ونموت شوقًا؛ لكن لا ننسى، لقد اختار " كامل " الرحيل من أجل صداقتنا، آثر الصداقة على حبه..

اختار الرحيل عن أسرته ومحبوبته وكل شئ من أجلي!..

هكذا؛ ظل يحدث نفسه ويبكي!

الفصل الأخير

بدأت "مريم " تستعد للعرس، وشراء كل ما يلزمها، وكادت أن تنتهي من إعداد منزلها وترتيبه، ودعوة الأهل والأصحاب، تخرج مع "رحيم " تشتري له الملابس الجديدة وبذلة الزفاف، اشترت فستان زفاف رائع للغاية، بدت فيه كالأميرات، تابعت بيت العائلة.. حلم السعادة، الأمور تسير بصورة جيدة، وقد تمَّ استقبال أعداد مناسبة للمكان، وتوزيع باقي الأعداد على أماكن أخرى، تمَّ العمل بالمشروعات الصغيرة، تابعت حديقتها الجميلة، وأزهارها الرائعة التي تبعث البهجة في قلبها..

شعر " رحيم " بتوتر نفسي وصداع شديد، ألم برأسه ومزاج سيئ لا يفهم سببه، لم يخبر "مريم " حتى لا يشغلها، هناك ضيق في صدره، اختناق عجيب، أرق وعدم نوم منذ يومين..

لم يفهم أن اللعنة ساخطة عليه، تريد معاقبته، تراقبه وتكيد له، تنسج خيوط الشر بذكاء؛ لتنال منه ومن أعز الناس إليه!

دلفت "مريم " داخل فراشها، تشعر أنها عروس، تبتسم لطيف "رحيم " أمامها، ساعات وستكون معه ولن يفترقا، تخيلت حفلة عرسهما، عاشت ليلة عرسها في احلامها، أغمضت عينيها وسكنت ابتسامتها وفارقت روحها الحياة؛ بينما كان " رحيم " يصرخ ويصرخ!

فتح "رحيم " عينيه إثر إحساسه بيد ربتت على كتفه؛ كأنه عاد بعد رحلة طويلة ذهب بها؛ إنها " مريم " تقف أمامه وتحمل طفلة رضيعة، أخذ يتلفت حوله وينظر بدهشة، إنها غرفة العناية المركزة، اتسعت عيناه وارتسمت على وجهه علامات الفزع، إنها " نعمة " ممددة على فراشها، لحظات من عدم الإدراك والفهم عصفت برحيم..

نظر مجددًا إلى " مريم "؛ فأجابته بحزن:

البقاء لله وحده!.. رحم الله زوجتك!

أنا دكتورة " مريم "، وهذه هي ابنتك!.. هدية الله لكَ ولتكون عوضًا لك عن فقد والدتها، تحتاج إليكَ وإلى قوتكَ!

لا يجب أن تقتلنا الأحزان كلما فقدنا عزيزًا لدينا، دومًا هناك أمل!

مكث "رحيم " ينظر إليها؛ والدموع تسيل على وجهه..

تابعت حديثها معه :

فقدت طفلتي بعد ولادتها بلحظات قليلة، بعد أن رأيتها وقبلتها، وضممتها إلى صدري، وتعلق بها قلبى، ثمَّ فقدت زوجي الذي أحببته بجنون بعدها بشهرين، كدت أموت حزنًا لفراقهما؛ لكن رحمة الله بي قد أنقذتني، واصلت عملي لأخفف آلام غيري

فتزول آلامي، كانت أول هدية لي بعد هذه المحنة، باقة من أزهار التوليب من طفلة صغيرة أنقذت والدها من الموت بفضل الله؛ وكأنها تقول لي أحبك، وعليكِ أن تستمري في العطاء؛ فالحب هو العلاج الوحيد!

مدَّ " رحيم " يده إليها، وأخذ ابنته، وضمها إليه بشدة وأخذ يقبلها ويبكي بحرقة!...

تمت بحمدالله!..